المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثالث - الإصدار الثالث والعشرون
تأريخ الإصدار: 20 سبتمبر 2021م

المعاني المدحية عند أبي تمام

The praiseworthy meanings of Abu Tammam

الباحثة/ لطيفة إبراهيم الرشيدي

ماجستير لغة عربية، كلية العلوم والدراسات الإنسانية، جامعة شقراء، المملكة العربية السعودية

Email: Lalrashyde@su.edu.sa

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان المعاني المديحيَّة في شعر أبي تمام ودورها في تكوين المثل الأخلاقي وترسيخه. فالعلاقة بين المديح وإبراز المثل الأخلاقية عند الممدوحين وثيقة؛ فالمديح قائم على أساس إبراز المحاسن والمناقب للممدوحين. ولما للأخلاق من أهمية بالغة عند العرب، فقد حرص الأدب على إثباتها. وجاءت الدراسة مشتملة على: مقدمة، وتمهيد، وفصل يحتوي على مبحثين، وخاتمة، يتبعها المصادر والمراجع.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة: أن أبا تمام سعى جاهدًا إلى ترسيخ الأخلاق الحميدة في مديحه، كما يعد المديح لدى أبي تمام منظومة من الآداب الإسلامية، كذلك أظهر فن المديح قوة العقيدة عند الشاعر، وضمّن الشاعر صوره المديحيَّة كثيرا من أبيات الحكمة والأدلة النقلية والمنطقية كما هو الشأن في قصيدة فتح عمورية التي مدح بها المعتصم.

كلمات مفتاحية: المعاني المديحية، حياة أبو تمام، المثل الأخلاقية، العصر العباسي.

Abstract

This study aims to show "the eulogizing meanings in Abu Tammam's poetry and its role in creating and consolidating the moral ideal."This confirms the extent to which the art of eulogy in Abi Tammam's poetry is related to the moral aspect. The study includes an introduction, a preliminary, chapter, and a conclusion, followed by references.

Among the most important findings of the study, the researcher states that: Abu Tammam strived to establish good morals in his eulogy. The eulogy of Abu Tammam is a system of Islamic virtues, also the art of eulogy demonstrated the strength of the belief of the poet. The poet included many praise images of the verses of wisdom and transfer and logical evidence, as is the case in the poem of Fateh Amoriya, in which Mu'tasim was praised.

Keywords: Laudatory meaning, Abu Tammam's life, moral ideals, Abbasid era.

المقدمة

زادت عناية الشعر بالأخلاق والمثل الأخلاقي، وتناول الشعراء الأخلاق في أغراض الشعر كافة: الغزل، والمديح، والفخر، والرثاء، حتى الهجاء كان بذكر مثالب القوم وأخلاقهم القبيحة.

ولعل ذلك هو الهدف من الخوض في غمار هذا الموضوع بحثا ودراسة؛ فهذه الدراسة لإظهار أبعاد القصيدة المديحيَّة العربية عند أحد الشعراء العرب، وهو أبو تمام، وبيان المثل الأخلاقية وتمثلاتها في القصيدة العربية من خلال القصيدة المديحيَّة.

هناك العديد من الأسباب التي دفعت الباحثة إلى اختيار هذا الموضوع، ومنها: إن المديح من أشهر الأغراض الشعرية التي تناولها الشعراء العرب من خلال قصائدهم؛ فالقصائد المديحيَّة تحتل المرتبة الأولى عند العرب على اختلاف الأزمان والحقب التاريخية. يضاف إلى ذلك أن دراسة المثل الأخلاقية من خلال قصيدة المدح عند أبي تمام من الموضوعات الأدبية الجديدة، أما الاختيار لدراسة الشاعر أبي تمام؛ فلأنه يعد أنموذجًا قوياً لشعراء المديح، ولما جادت قريحته من معانٍ أخلاقية كثيرة ومتنوعة في مديحه، خاصة أن شعر المديح عنده قد احتل قرابة ثلثي شعره، كما كان لأسلوبه الشعري ومدرسته الفنية دورٌ مهمٌ في إظهار فنيَّتها في هذه الدراسة. فالشاعر من أشهر شعراء العربية على مر العصور، وكان محل دراسة وعناية النقاد العرب لاسيما في محاولة الموازنة والمقارنة بين شعره وشعر البحتري، وينجلي ذلك من خلال تأليف الآمدى كتابه الموسوم: "الموازنة بين أبي تمام والبحتري". فأبو تمام بلغت شهرته عنان السماء.

أهمية الموضوع

وتكمن أهمية الموضوع في كون المدح من أبرز أغراض الشعر العربي؛ فهو يشتمل على عدة أغراض، هي: "الرثاء، والافتخار، والتشبيب، وما تعلق بذلك من محمود الوصف: كصفات الطلول والآثار،

والتشبيهات الحسان، وكذلك تحسين الأخلاق: كالأمثال، والحكم، والمواعظ، والزهد في الدنيا، والقناعة"[1]، "وقد أكثر منه الشعراء في كل عصور الأدب العربي حتى صار أضخم أبواب الشعر العربي"[2] وعزا بعضهم تأخر مرتبة الشاعر لعدم إجادته هذا الفن، ويرى العقاد أن شعر المديح "من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأدب في وقت واحد"[3].

فالعلاقة بين الشعر والأخلاق علاقة وطيدة؛ فالأدب تعبير عن المجتمع الذي لا يستقيم ولا ينهض إلا بهذه الأخلاق؛ ولهذا ارتبط فن المديح برصد الأخلاق الحميدة للممدوح. من ثمَّ يحاول البحث أن يكون إضاءة حول القيم والمثل الأخلاقية في مديح أبي تمام، هذه القيم التي تعد مُثلا أخلاقية ترسخت في أذهاننا وسلوكنا، ونقلت هذه المثل الأخلاقية في شعر المديح من مجرد معنًى مدحيّ إلى قيمة عظيمة يدعو إليها الشاعر، ويستقبلها الفرد المجتمع، وهذا ما دعا الباحثة إلى اختيار هذا الموضوع.

وخلاصة القول، يمكن أن نستخلص أهم أسباب اختيار الموضوع فيما يلي:

- دراسة فن المديح ومعانيه في شعر أبي تمام.
- دراسة مدرسة أبي تمام الشعرية ودورها في شعر المديح.
- بيان أهم المعاني المديحيَّة التي تحتوي على المثل الأخلاقية في شعر المديح.

أهداف الدراسة

تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

(1) التعريف بالمعاني المديحيَّة في شعر أبي تمام.

(2) تصنيف المعاني المديحيَّة حسب القيم التي ترمي إليها.

(3) بيان فلسفة أبي تمام في توظيف القيم والمثل الأخلاقية من خلال قصيدة المدح.

فرضيات الدراسة وتساؤلاتها

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة، منها:

(1) ما فلسفة أبي تمام عند توظيف المثل الأخلاقية من منظور المديح؟

---

(1) أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد الجزء، دار الجيل، ط الخامسة 1401 هـ، عدد الأجزاء: 1،2 ص 121.

(2) بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2 ص155، 1390هـ.

(3) أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر – القاهرة، ط1، 1977م، ص 212.

(2) إلى أي مدًى يحقق المديح أهدافًا أخلاقية؟

(3) ما المعاني المديحيَّة التي ظهرت في قصائد أبي تمام؟

(4) هل كان لفكر أبي تمام وفلسفته الشعرية أثر في المديح؟

(5) هل كانت المثل الأخلاقية في قصائد أبي تمام ذات صبغة فنية أم للتكسب؟

(6) كيف استطاع أبو تمام تحويل المعاني المديحيَّة إلى قيم أخلاقية؟

(7) ما مظاهر التميز في مديح أبي تمام؟

المنهج العلمي المتبع في هذه الدراسة:

هو المنهج الوصفي التحليلي الإحصائي يقوم على تسلسل منطقي للأفكار من خلال: الوقوف على صفات المديح المذكورة في الشواهد في ديوان أبي تمام، ومحاولة تحليل هذه الشواهد للوقوف على الجوانب الأخلاقية والفنية عند أبي تمام.

محتوى الدراسة

وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة، وفصل يشتمل على مبحثين خاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة. وفيما يلي بيان بالبناء الهيكلي للدراسة وفق الآتي:

- **المقدمة:** يعرض للمقدمة النظرية للدراسة، والمتمثلة في: أهمية الدراسة، وأهدافها، وفرضياتها، ومنهج الدراسة.
- **وجاء الفصل معنونا بـ: (المعاني المديحيَّة عند أبي تمام)، وقد اشتمل على مبحثين:**

- **المبحث الأول: (المديح في شعر أبي تمام)**، جاء فيه التعريف بشخصية أبي تمام من حيث الاسم ومكان الولادة والوفاة والرحلات إلى غير ذلك من جوانب شخصيته الذاتية. وتناول المبحث شهرة أبي تمام الشعرية ونبوغه، وشهادة النقاد والمتذوقين لشعره. وتتبع هذا المبحث الإبداع المتولد من أسلوب أبي تمام الشعري، وكيف أنه استطاع بناء قصيدة جديدة مع محافظته على الموروث القديم، والهيكل العام للقصيدة العربية التقليدية. ومن هنا جاء الإبداع في التجديد دون الإخلال بعناصر القصيدة القديمة، وبتتبع أبي تمام من خلال ديوانه تبين لنا احتفاظه بالمقدمة الطللية وما يخصها أو يتصل بها من النسيب والتشبيب، وما أودعه فيها من لطائفه ولفتاته النادرة، وإلباسه إياها الحلة البهية من البديع، إضافة إلى الخيال وجماله.
- **المبحث الثاني، جاء بعنوان (تصنيف المعاني المديحيَّة والقيم الخلقية في شعر أبي تمام)**، وقد تم تقسيم هذا المبحث حسب ظهور المعاني المديحيَّة في ديوانه، فجاءت على التوالي:

1- **الحكمة والأخلاق**، وقد أخذ هذا العنوان حيزًا لا بأس به في هذا المبحث؛ وذلك لإيراد الشواهد الشعرية الخاصة به التي تكلم فيها عن نفسه في باب الحكمة، وتقلبات الزمان عليه، إضافة إلى مدحه الأمراءَ والولاة بهذا الخلق الحميد والذي أفاض بمدحهم به.
2- **الزهد:** باب الحكمة وترك أوامر النفس.
3- صلة الرحم وحفظ حق الجار ومساعدة المحتاج.
4- **الكرم والجود** في مديح الطائي.
5- **الشجاعة** في مديح أبي تمام.
6- **جمع المُثل الخلقية** بممدوح واحد في بيت واحد.

المبـــحث الأول: (المديح في شعر أبي تمام)

حياة أبي تمام وشعر المديح

"هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ولد بقرية جاسم من أعمال حوران، من بلاد دمشق، كان أسمر طويلا، فصيحًا حلو الكلام، فيه تمتة يسيرة، كان فطنًا ذكيًا محبًا للشعراء، توفي في الموصل سنة ثمانٍ وعشرين ومئتين"[(4)].

وقد طفق بعض النقاد يؤكدون "تميز شعره بالدقة والتأني والتمهل، فلم يكن يخرُجُ البيت إلا بعد أن يتفحصه ويهذبه ويعيد النظر فيه؛ ليخرج بأبهى حُلَّةٍ وأجمل صورة، فلم يقبل الارتجال ولا السرعة في النظم إلا بعد تمعن وتأن ينتهيان به إلى إخراج الصورة من شعاب فكره وأعماق شعوره معًا"[(5)]. أما ما عيب عليه من غرابة المعاني والاستعارات، فقد رد عن ذلك نفسه، فقد روى الصولي عن ابن الأعرابي المنجم قال:"كان أبو تمام إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه، كأنه كان علم ما يقول فأعد جوابه، فقال له رجل: يا أبا تمام، ولم لا تقول من الشعر ما يعرف؟ فقال: وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال؟ فأفحمه"[(6)].

وهذا يؤكد لنا عمق العلاقة بين أبي تمام والشعر، وتظهر شخصيته وبديهته وذكاؤه، والطريقة التي كان يتَّبِعها في قرض الشعر، والعلاقة بين طريقته التجديدية وعمود الشعر، ورصانة قوله وعُمق مدلولاته وغرابة معانيه.

---

(4) انظر: عطية شاهين، شرح ديوان أبي تمام، ضبطه وشرحه، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان 1987م، ط 1، ص 8-12.

(5) انظر:عبد الله التطاوي، النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1999 م، ص 84.

(6) الصولي، أخبار أبي تمام، ص 72.

ولا يخفي علينا أن اللغة العربية لديها مرونةٍ بالغة في توليدِ المعاني وابتكار الصور الجميلة، فهي أداة طائعة بيد البارع المبدع؛ لينتج فنًّا أو نمطًا أدبيًّا زاهيًا تتمتع به الأذواق الراقية، وما الشعراء إلا الوجهَ النَّظِرَ لهذه الفنون البديعية، فهم من يستخرج من عمقها اللآلئ والدرر، يظهرونها للملأ على أتم صورة وأبدع بيان، ومن أهم هذه الأغراض فن المديح، هذا الفن الذي يشغل حيزًا كبيرًا في ديوان العرب، وخصوصا أن الخلفاء كانوا يُحبون المبالغة والإغراق في مدحهم ويُجزِلون العطاء فيهما.

فكان الشعر العربي يُوجِدُ في الممدوح أنموذجًا من المثال الخلقي الرفيع وهذا النموذج القويم يشكل الرجل النبيل لدى المجتمع، أو أن يكون الممدوح واليًا أو سلطانًا أو أميرًا مؤثرًا في سياسة عصره، إضافة إلى مدح أبطال الحروب الذين يقودون الجيوش لنصرة العرب وعزة الإسلام.

ويمكن القول: إنّ أكثر شعراء العصر العباسي اعتنوا بالصورة الفنية للمديح في الشعر العربي، وبثوا صورًا حية للمثل الخلقية في مدائحهم، وأضافوا معاني الحزم والمروءة والعفة والكرم وعلو الهمة والشجاعة إلى غير ذلك من مروءات النفس وصفات الفارس العربي وصفات الإنسان القائد الحليم الحكيم؛ إذ استطاع الشاعر العباسي أن يُجسِّم تلك المثل الخلقية في ممدوحه تجسيدًا قويًّا، وهذا نِتاج العقول الخصبة والخيال البارع.

وأبو تمام أحد الشعراء العرب الذين أبدعوا في هذا الفن الأدبي؛ إذ أبدع في نظم الكلمات بطريقة بديعة، وضمّن أشعاره بعض مصطلحات العلوم والثقافة الدينية؛ لِتخرجَ فرائدهُ غنيةً قويةً، حاملةً للكثيرِ من المعاني والصور، ومن أهم ملامح أبي تمام وخصائصه المديحيَّة أنه يبدع في الموازنة والملاءمة بين المدح والممدوح،

فمدحه للحسن بن وهب يتصف بالأدب والبلاغة والألفاظ والمعاني منتقاة بعناية فائقة؛ وذلك لأن تلك من صفات الكاتب الحسن بن وهب، وكذلك الشأن نفسه موجود لدى ابن الزيات؛ فعند مدحه لن يخرج عن إطار الصفات اللازمة لمثل هؤلاء.

لقد كان لثقافة أبي تمام دور كبير في شعر المديح، فقد ارتفع شأنه علميا وأدبيا، "أبو تمام شاعر على المذهب الشامي، جزل الألفاظ، متين التركيب، يتكلف الصناعة المعنوية والصناعة اللفظية، مولع بالإغراب في تقصي أوجه المعاني وفي التشابيه والاستعارات، يملأ شعره بالإشارات التاريخية والفلسفية والنحوية. ومعانيه المخترعة كثيرة"[(7)].

أبو تمام صاحب شخصية فَذَّة، تتمتع بحدة الذكاء، ارتقت به إلى قصور الولاة والأمراء دون خوف أو تَردُّد، بل بثقة مطلقة، وتظهر هذه الثقة الشاعرية وقوة الإبداع الفني لديه في كثير من مديحه،

(7) عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1388هـ - 1968م ص 253.

فَمَدَحَ الخليفة المعتصم، والوزير ابن الزيات، والحسن بن وهب الذي ولاه بريد الموصل، وغيرهم الكثير من أصحاب الشأن والنفوذ والسلطة والعلوم والمراتب.

وبالنظر إلى المدح عند الطائي نجده أنه من " أهم الأغراض التي تتجلي فيها خصائصه، وهو في كثير منه، بل في جمهوره يحتفظ بالمقدمة الطللية، وما يتصل بها من التشبب والنسيب، مودعًا فيها كثيرًا من لفتاته وخواطره النادرة التي تدل على سعة خياله وتأمله الطويل، وأنه يُخضع التفكير للشعر، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر، أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق"[(8)].

وقد ازدهر المِديح على لسانِ أبي تمام في تمثيل العناصر المديحيَّة القديمة وما تحويه من قيم اجتماعية ودينية عالية، وبث فيها من فرائده الخاصة، وأودع فيها عناصر جديدة استلهمها من البيئة الحضارية التي يعيش فيها ومن ثقافته وفكره ومنطقه، فنزع إلى مدح الخلفاء بالتقوى والعدل، وأطال في مدح القادة وشجاعتهم في المعارك والحروب، وعند مدح الوزراء والساسة نجد الحكمة والحنكة والدراية.

لقد استحوذ فن المديح على قُرابة ثلثي ديوان أبي تمام، وهذا يدل على انشغال أبي تمام بهذا الفن، والثلث الباقي من شعره توزع على بقية الأغراض الشعرية الأخرى، تؤكد تلك الاحصائية الآتية ذلك:[(9)].

الأغراض	عدد النصوص	النسبة المئوية	عدد البيوت	النسبة المئوية
المدح	175	36.08	4745	65.34
الغزل	131	27.01	561	7.72
الهجاء	84	17.31	645	8.88
الرثاء	30	6.18	579	7.97
العتاب	29	5.97	289	3.98
الوصف	19	3.91	187	2.57
الفخر	8	1.64	179	2.46

فأكثر أشعار أبي تمام كانت مديحا، مما يؤكد أنه عني بمدح الوجهاء والخلفاء كثيرا حتى أنه لم ينتفع شاعر غيره بالعطاء، كان أبو تمام شاعرا متكسبا يمدح الخلفاء والوزراء وأصحاب الجاه؛ لينال منهم المال، فالغرض من مديحهم الحصول على المال، وقوة شعره عند ممدوحيه كسدت سوق الشعراء في زمنه فقد استحوذ بشعره على عطاء الخلفاء والوزراء وغيرهم، يؤكد ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني عن أحمد بن يزيد المهلبي عن أبيه قال: "ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام.

(8) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص 279.
(9) الإحصائية نقلا عن كتاب أبو تمام وتجربة البحث عن الذات، د. محمد معز جعفورة، تقديم أ.د أحمد حيزم، الدار التونسية للكتاب، تونس، د.ت، ص25.

فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذه"[10]، وهذا الخبر يؤكد "شدة الحملة عليه من شعراء ونقاد عصره، خاصة بعد وفاته؛ لأنه في حياته لم يترك لهم مجالس الكلام والاستفادة منها"[11]

وقد تنوعت مدائح أبي تمام لممدوحيه، وفيما يلي عرض لإحصائية عدد الأبيات

الممدوح	عدد القصائد	عدد البيوت	النسبة المئوية	الترتيب
أبو سعيد محمد بن يوسف	25	653	13.76	1
المعتصم	7	373	7.86	2
خالد بن يزيد الشيباني	10	359	7.56	3
محمد بن الهيثم بن شبانة	9	278	5.85	4
أحمد بن أبي دواد	11	274	5.77	5
مالك بن طوق التغلبي	8	247	5.20	6
الحسن بن وهب	10	245	5.16	7
إسحاق بن إبراهيم بن صعب	6	177	3.73	8
أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي	4	117	2.46	9
المأمون	3	104	2.19	10
الواثق	2	100	2.10	11
محمد بن حسان	4	78	1.64	12

تُظهر الإحصائية الآتي:

- إن أبا تمام لم يخص الممدوحين جميعا بعدد البيوت نفسها؛ فأول المحظوظين بالشاعر ومديحه أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري. أما محمد بن حسان فآخرهم.

- استأثر الخلفاء والوجهاء بالمديح؛ لكثرة عطائهم، فكان التكسب عاملا رئيسا لغزارة الشعر وجودته.

- استأثر المعتصم-دون بقية الخلفاء- بأكثر البيوت مدحا حيث بلغت أبيات مديحه 373 بيتا، بنسبة 7.86% في حين بلغت أبيات المديح لكل من المأمون والواثق 204 بيتا بنسبة 4.29 %،

(10) أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، شرح وكتب هوامشه: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج16، ص 420- 421.

(11) أبو تمام حياته وشعره، محمد رضا مروّة، ص 421.

وهذا يؤكد أن المعتصم كان أشد الخلفاء عناية ورعاية لأبي تمام، وقد مدح أبو تمام المأمون، فلم يعطه؛ لولائه للعلويين، "وإن المأمون قد انقلب على آل علي، فأوغر صدره أن يرى أبا تمام يمدحهم ويعرِّض ببني العباس[12].

وقد أكد أحد الباحثين "أنَّ وعي أبي تمام كان وعي فنان عظيم، لا وعي متكسب محتال يجمع الأموال بأي طريقة وعلى أية حال، فهو شاعر مداح يتوخى – قدر استطاعته – أن يسقط مدحه على من يستحقه من كرماء الناس وأجودهم، وهو لقاء عطاياهم كان يحرص أشد الحرص على تجويد شعره؛ ليتقابل الجزاء بالجزاء؛ فأتى بلوحات فنية فريدة جعلت من المدح صورة مدهشة أكسدت بضائع الشعراء المكتسبين في عهده"[13].

ولم يكن همه الاكتساب فقط، لو كان همه الإبداع؛ وهذا الذي دعاه إلى الخروج على عمود الشعر وتقاليد القصيدة في اللفظ والمعنى، ويعد هذا من وجهة نظر الكثير من النقاد المحدثين ثورة فنية قوية.

المبحث الثاني: تصنيف المعاني المديحيَّة والقيم الخلقية في شعر أبي تمام

- **الحكمة والأخلاق**

استغرقت الحكمة جانبا كبيرا من شعر أبي تمام، وقد استمدَّها من ثقافته المتنوعة، وجمع شتات حكمته من ثقافات شعوب وحضارات مختلفة، فهو لم يأل جهدًا في النهلِ من معين الثقافتين: الهندية والفارسية على وجه الخصوص إضافة إلى اليونانية وثقافته الأم العربية حتى قيل: إنه الحكيم أو شاعر الحكمة، ويؤكد ذلك المتنبي قائلا: "أنا وأبو تمام حكيمان، أما الشاعر فالبحتري"[14]. ثم يعترف المتنبي بشاعرية أبي تمام وأثره، فيقول: "أو يجوز للأديب ألا يعرف أبا تمام، وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده"[15]

ومما لا شك فيه أن حكمته هذه انعكست على مديحه، بل تناثرت في جلها؛ فأظهرت المعاني المديحيَّة صفات الوقار والحزم والرزانة التي تعد من أولى أولويات المثل الأخلاقي عند الممدوح أيًّا كان منصبه أو عمله.

(12) عمر فروخ، أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله، دار لبنان، بيروت، 1964م ص30.
(13) عيسى المصري، الوعيُ الشِّعريُّ عند أبي تمام - قراءة نسقيَّة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث العلوم الإنسانية، تصدر جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، المجلد30 ، عدد12، 2016م ص 249.
(14) يوسف البديعي الدمشقي، الصبح المُنْبِي عن حيثية المتنبي، تحقيق: مصطفي السقا وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1994 م ، ص 143.
(15) المرجع السابق، ص 249.

ومن ذلك قوله في مدح محمد بن عبد الملك(16):

لُقْمَانُ صَمْتًا وَحِكْمَةً فَإِذَا قَالَ لَفْظًا لَقَطْنَا المَرْجَانَ مِنْ خُطَبِه

فما قبل في وصف ممدوحه إلاَّ المثل الأعلى في الحكمة وهو سيدنا لقمان الحكيم -عليه السلام- ثم أيُّ حكمة هذه التي يمتلكها الممدوح؟ إنها حكمة رأس العلم ومنبعه، حكيم في صمته حكيم في نطقه، وأي تشبيه فريد هذا؟ شبَّه الكلام الحكيم والعلم الوافر بالياقوت والجواهر التي يتلقفها السامع من هذا الممدوح، فأي ميزة، وأي سمة يرجوها الممدوح من مادحه أكثر من ذلك؟

ولنتأمل الحكمة والزهد في قوله(17):

أَلَمْ يَأْنِ تَرْكِي لا عَلَيَّ وَلا لِيَا وعَزْمِي عَلَى مَا فِيهِ إِصْلاحُ حَالِيَا؟

فهو يقر بأن الزمن قد مضى بما كان، وأنَّ الوقت قد حان للتفكُّرِ في الصلاح الذي يقود إلى الفوز بالآخرة، فهو يُذكِّر نَفسه قبل غيره ويَعِضُها بأن ينحو نحو الصلاح، وهذا من أهم مآثر الرجل الصالح الحكيم، صاحب الخلق الرفيع.

وقد ترددت حكمته في أكثر من موضع فيما يخص الشكوى من الزمن ومرارة الأيام، وما على المرء أن يكون؛ إذ يعدُّ الزمن صاحب سياسة خرقاء، فيقول(18):

لَقَدْ سَاسَنَا هَذَا الزَّمَانُ سِيَاسَةً سُدًى لَمْ يَسُسْهَا قَطّ عَبْدٌ مُجَدَّعُ

تَرُوحُ عَلَيْنَا كُلَ يَوْمٍ وتَغْتَدِى خُطُوبٌ كَأَنَّ الدَّهْرَ مِنْهُنَّ يُصْرَعُ

الناظر لهذه الأبيات يجد أن قائلها مُتَمَرِّس بالتعامل مع خطوب الحياة، قادر على تجاوزها، وهذا من أهم صفات الرجل الذي يعدُّ صاحب خلق وحكمة.

وأبو تمام شاعر الحكمة في عصره، "تلك الحكمة التي اختلطت بالفلسفة وامتزجت بالثقافة العالية التي لم تكن لشاعر كما كانت لأبي تمام، ومن الجدير بالذكر أنه عند ذكر الحكمة فإنها ترتبط بالشاعر البحتري، إلا أن المتأمل والمُتمَحِّصَ يجد أن البحتري تَبِعَ أُستاذه أبا تمام في ذلك، فالبحتري -إن صح التعبير- نتاج لأبي تمام؛ إذ إنه نَهَجَ نهجَ أستاذه في الحكمة والفلسفة، إلا أنه لم يرتقِ لمستوى أستاذه في ذلك"(19)، "والحقيقة أنه

(16) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة م 1، ص 274. البحر المنسرح.

(17) المرجع السابق، م4، ط3، ص 600. البحر الطويل.

(18) المرجع السابق، م 2، ص 324. البحر الطويل.

(19) انظر: شوقي ضيف، كتاب تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص 285-287.

تبعه في العلم، ولم يتبعه في الشعر، لقد التزم البحتري عمود الشعر، وطريقة العرب في نظم الشعر لفظا ومعنى، وهذا ما أكده كثير من النقاد".[20]

وقيل عن تدينه: "ديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه، وليس في ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثًا أو ماجنًا، والحق أنه كان وقورًا، وكان يَتَرَفَّعُ عن الدنايا، وكان مخلصًا لدينه، كما كان مخلصًا لعروبته"[21].

وليس أدل من هذه الشهادة على أن أبا تمام نهج في مديحه نحو الحكمة طائعًا مُحبًا، لا مُتزلفًا مخادعًا، وإن كان يستخدم الحكمة في المديح، إلَّا أن ذلك تصوير لما في نفسه.

أبو تمام استطاع بعبقريته الشعرية الفريدة أن يَسْتَغِل معرفته العالية بالثقافات المختلفة، ويوظفها في شعره، فقد صاغ أبو تمام كثيرًا من الحكم الهندية والفارسية شعرًا، ومن ذلك قوله[22]:

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ مَالٌ وَقَومٍ يُنْفِقُونَ نُفُوسَا!

أخذ أبو تمام هذا المعنى من حكمة فارسية مفادها: "إن الحازم يكره القتال ما وجد بدًّا منه؛ لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال"[23].

ومن الحكم المتعلقة بالسيادة، والداعية إلى الفخر بالنفس؛ لما هي عليه من حكمة قوله يمدح مالك بن طوق التغلبي[24]:

لَيْسَ الْغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِي

فالشاعرُ هنا يَمْدحُ ذكاء ممدوحه وحِنْكتهِ وصبرِهِ وتمحيصه للأمور ومعالجتها بالزمان والمكان والطريقة المناسبة.

وبأخلاقه العالية وصفحه وتسامحه يقول[25]:

(20) انظر: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص 4، بتصرف.
(21) شوقي ضيف، كتاب تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص 276.
(22) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 2، ص 267.البحر الكامل.
(23)انظر: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج1359،1م، ص 144.
(24) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 1، ص 87.
(25) المرجع السابق، م 1، ص 87. البحر الطويل.

فَأَتَوا كَرِيمَ الْخِيمِ مِثْلَكَ صَافِحًا عَنْ ذِكْرِ أَحْقَادٍ مَضَتْ وَضِبابِ

فالسيد الحقيقي الذي يريد أن يسودَ عليه أن يَتَدثَّر بالأخلاق، ويترفَّع عن الأحقاد كما هو حال الممدوح.

أما فلسفته العميقة فلم تكن فارسية فقط، بل كان متأثرا بفكر المعتزلة وفلسفة علم الكلام يؤكد ذلك شوقي ضيف بقوله: "وكان أبو تمام على شاكلة أبي نُواسٍ؛ يَتَعَمَّق الاعتزال وعلم الكلام، بل ويظهر أنه قد تعمقه إلى الفلسفة، وما يتصل بها من المنطق"[26].

كما تظهر فلسفته الاعتزالية في مدحه أحدَهم بقوله[27]:

صَاغَهُمُ ذُو الْجَلالِ مِنْ جَوْهَرِ الْمَجْـ ـدِ وَصَاغَ الأَنَامَ مِنْ عَرَضِه

إذ إن الجوهر عند الفلاسفة والمتكلمين أثبت من العرض. وفي مدحه لأبي سعيد الثغري يقول[28]:

عَمْرِيٌّ عُظْمِ الدّينِ جَهْمِيُّ النّدَى يَنْفِي القُوى ويُثَبِّتُ التَّكْلِيفَا

يؤكد الشاعر أن الممدوح سُنِّي العقيدة كعمرو بن عبينة، "في أول البيت جعله عُمري العقيدة، يريد على مذهب عمرو بن عبينة"**(29)** لكنه يعطى بلا منٍّ ولا حساب لاعتقاده أن كل شيء بقدر الله كالجهمية، لكنه يُثبت التكليف كأهل السنة بلا نفي للقدر، لقد أستلَّه من المذمة والقدح فيه بقوله: "جهميٌّ"، أي: قدريٌّ يعتقد الجبر، فأرداف بذلك بقوله: "ويُثَبِّتُ التَّكْلِيفَا"، ويخرجه من مظلة الخبرية، ويرفعه إلى أهل السنة، كأنه يقول: إنه سنيٌّ العقيدة قدريٌّ العطاء.

"وشعر أبي تمام زاخر بما يدل على أنه انقضَّ على معارف عصره انقضاضًا، حتى تَمثَّـلها تَمثُّـلا دقيقًا، وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق"[30].

وهذا يؤكد أنه أبحر في علوم عصره، وتتبَّع ما جاء من ثقافات وحضارات أخرى غير العربية، فأبو تمام لم يقتصر علمه واطلاعه على المعارف الأدبية بل جال في علوم مختلفة كالفلسفة وعلم الكلام والاعتزال والمنطق، وعلوم أخرى.

(26) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص 157.
(27) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 2، ص 317. البحر الكامل.
(28) المرجع السابق ، م 2، ص 387.
(29) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، ص 157.
(30) المرجع السابق، ص 276.

ومن شعره الدال على الخبرة والتمرس قوله يمدح الحسن بن سهل[31]:

وغَرَّبتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ ... وَشَرَّقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ الْمَغَارِبا

خَطُوبٌ إِذَا لاقَيْتُهُنَّ رَدَدْنَنِي ... جَرِيحا كَأَنِي قَدْ لَقِيتُ الْكَتَائِبَا

وَقَدْ يَكْسَبُهُم السَّيْفُ المُسَمَّى مَنِيَّةً ... وَقَدْ يَرْجِعُ الْمَرْءُ الْمُظَفَّرُ خَائِبا

وَكُنْتُ امْرِءًا أَلْقَى الزَّمَانَ مُسَالِمًا ... فَآليتُ لا أَلْقَاهُ إلاّ مُحَارِبا

وهذه صورة فخرية تؤكد خبرته وتجاربه، فالشاعر يفتخر بنفسه واصفا نفسه بالمُسافر المُجرِّب الذي جاب مشارق الأرض ومغاربها، وعرف ما فيها، ولاقى من أهوالها وعجيبها الكثير، الأمر الذي جعل منه رجلًا صعب المِراس صابرًا محاربًا، والملاحظ في هذه القصيدة وغيرها الكثير من قصائد مديحه أنه قلما يترك مدحيَّة لأحد لا يمدح فيها نفسه قبل ممدوح، فعلى الرغم من أنه قال هذه القصيدة يمدح بها الحسن بن سهل إلا أنه لم ينس أن يفتخر بنفسه فيها.

ومن أشعار الحكم له مدحه لعلي بن الجهم، يتحدث فيها عن الصداقة وثبات العقد بين الشعراء والأدب، فقال[32]:

إِنْ يُكْدَ مُطَّرَفُ الإِخَاءِ فَإِنَّنَا ... نَغْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدِ

أَوْ يَخْتَلِفْ مَاءُ الوِصَالِ فَمَاؤُنَا ... عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمامٍ وَاحِدِ

أَوْ يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَنَا ... أَدَبٌ أَقَمْنَاهُ مُقَامَ الْوَالِدِ

فهذه صورة فنية جميلة دالة على دُربة الشاعر ودرايته بفنون الشعرِ وصنْعَته؛ فقد استخدم الشاعر مهاراته اللفظيِّة وذوقهِ العالي في انتقاء المفردات؛ لِيُجَذِّر المعنى الذي أراده، فمهما تباعد المادح والممدوح لاختلاف أمور الدنيا إلَّا أنَّ الصلةَ بينهما ذات شأن أدبي أخوي، وثمار هذا الود بقاء الصِّلة قائمة، والأجمل أنه أقام الصلة بينهما على المُثل الخلقية والأدبية.

ويقول أيضًا[33]:

يَوْمِي مِن الدَّهرِ مِثْلُ الدَّهرِ مُشْتَهِرٌ ... عَزْمًا وَحَزْمًا وَسَاعِي مِنْهُ كَالْحِقَبِ

(31) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 1، ص 143.البحر الطويل .
(32) المرجع السابق، ص 402.
(33) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 1، ص 110.

فأصْغِري أنَّ شَيْبًا لاحَ بِي حَدَثًا وَأكْبِرِي أنّني فِي الْمَهدِ لَمْ أَشِبِ

ولا يؤَرِّقكِ إيماضُ القَتِيرِ بِهِ فَإنَّ ذَاكَ ابْتِسَامُ الرَّأيِ والأدَبِ

لا تُنكِرِي مِنهُ تخدِيدًا تَجَلّلَهُ فالسَّيفُ لا يُزْدَرى إنْ كَانَ ذَا شُطَبِ

ففي هذه الأبيات يعاود الكَّرة فيمدح نفسه، فلا أحد يؤكد أن الشيب يكون في حداثة سن الإنسان، وخصوصًا حين يكون في المهد، فهو يؤكد أنه شاب صغيرا بسبب الحبيب؛ وذلك دليل على ابتسام الرأي والأدب عنده، دلالة على افتخاره بعلمه الغزير وثقافته العالية، وجعل ذلك كله في صورة بديعية جميلة .

ومن أشعار الحكمة والرؤية الأخلاقية عنده ما قاله في حسن الخلق[34] :

فَلَمْ أجِدِ الأخْلاقَ إلا تَخَلّقًا وَلَمْ أَجِدِ الأفْضَالَ إلا تَفَضُّلَا

فأبو تمام عاش في العصر العباسي الأول، وهو عصر مشحون بالمتناقضات، ففيه الزاهد العابد، وفيه الفاجر الفاسق، وفيه شارب الخمر، إضافة إلى الزنديق والشعوبي، وغير ذلك من المتغيرات السريعة، ناهيك عن الأحداث السياسية التي عصفت بالدولة والحكم. كل ذلك قاد أبا تمام إلى التمسك بالفضائل والنأي عمّا يشوب المعتقد من علائق غير سليمة؛ لذا رأيناه في كثير من أشعاره حكيمًا رزينًا يتمسك بالمثل الأخلاقية، ويدعو إلى التمسك بها، ويمدح من أراد بها أيضًا.

ومن حسن الخلق وصفاء النفس مدحه لأبي العباس نصر بن منصور بقوله[35] :

لهُ خُلُقٌ سَهْلٌ وَنَفْسٌ طِبَاعُهَا لِيَانٌ وَلَكِن عَزْمهُ مِنْ صَفَا صلْدِ

فالممدوح قد جمع حسن الخلق ولين النفس ورحمتها مع القسوة والشدة حين اللزوم، وقلما تجتمع الشدة واللين في رجل، كل بوقته المناسب له.

ومن حسن الصبر والثبات في وجه الزمان قوله فيه[36] :

إذَا طَرَقَتهُ الحَادِثاتُ بِنَكْبَةٍ مَخَضنَ سِقَاءً مِنْهُ لَيْسَ بِذِي زَبَدِ

فالممدوح لا ينثني ولا يلين لحوادث الزمان، بل يصبر ولا يخضع، فشبهه بالسقاء الذي ليس فيه زبد، فمهما مخضه الماخض لا يجد فيه ما يريد، كذلك شأن الممدوح مهما اشتدت به الأزمات فلن تجد فيه خضوعًا ولا استكانة.

(34) المرجع السابق، م 3، ص 105. البحر الطويل.
(35) المرجع السابق ، م 2، ص 65. البحر الطويل.
(36) المرجع السابق، م2، ص 66. البحر الطويل .

أما الصبر وسعة الخلق فنجدها مجتمعه في الحسن بن سهل؛ إذ يقول الطائي(37):

كأنّمَا هُوَ مِنْ أَخْلاقِهِ أبدًا وَإنْ ثوى وَحْدَهُ فِي جَحْفَلٍ لَجبِ

فالممدوح بقدرته على مواجهة نوائب الدهر والصبر والثبات كأنه يواجه جيشًا كبيرًا، وإن كان وحده.

وقريب من القول الأول قول أبي تمام وصفًا للحسن بن وهب (38):

تَلْقَى السُعُودَ بَوَجْهِهِ وُتحِبُّهُ وَعَلَيْكَ مَسْحَةَ بِغْضَةِ فَتُحَبِّبُ

فيرى الشاعر أن هذا الممدوح محبوب محب، صاحب وجه بشوش ومتلق طيب، ليضيف الطائي أن المرء إذا كان مبغوضا لدى الناس، فإنهم سينسون ذلك البغض بمجرد أن يروا مدح الشاعر لهذا المرء.

وله صورة جميلة في كيفية نشر الفضيلة؛ إذ أبدع حين أغرب في رسم هذه الصورة حين قال(39):

وَإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طَوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لقد رسم صورة رائعة جميلة فنية، حيث يرى أن حامل الحسد أخيرًا أصبح مفيدًا من خلال نشره لفضيلة مَنْسِيَّة أرادَ اللهُ لها الظهور بين الخلْقِ مرَّةً أخرى.

ومن قصيدة فتح عمورية نختطف قوله يمدح المعتصم(40):

وَحُسْنُ مُنقَلَبٍ تَبْدُو عَواقِبُهُ جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ مِنْ سُوءِ مُنقَلَبِ

فهو يريد بأن حسن المنقلب والبشاشة جاءت للمسلمين من سوء منقلب الكفار، وهذا قريب من قول المتنبي: "مصائب قوم عند قوم فوائد"، كذلك يظهر تقلُّب الأحوال بين البشر، وهو ما يذكِّر بقوله تعالى: (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ)(41)، فهذا من بدائعه الجميلة المتعلقة بالحكمة.

وقريب من قوله هذا ما قاله في مدح محمد بن يوسف الثغري، يقول(42):

---

(37) المرجع السابق، م1، ص 114.البحر البسيط.
(38) المرجع السابق ، م1، ص 133.البحر الكامل.
(39) المرجع السابق، م1، ص 397.البحر الكامل.
(40) المرجع السابق، م1، ص 58.البسيط .
(41) سورة آل عمران، الآية 140.
(42) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 2، ص 462.البحر الطويل .

فَمَا تَتْرُكُ الأَيَّامُ مَنْ هُوَ آخِذٌ وَلا تَأْخُذُ الأَيَّامُ مَنْ هُوَ تَارِكُ

فَالأَيَّامُ دُوَلٌ، وَلا شَأْن أَوْ قُدْرَة للبشر فِي تغيير القدر.

وبتبدل الحال وغدر الزمان يقول(43):

كَمْ فَتًى ذَلَّ لِلزَّمَانِ وَقَدْ أَلْـ ـقَى مَقَالِيدَهُ إِلَيْهِ القَبِيضُ

فالزمان متغير متقلب، لا يبقي صفو العيش للفتى على حاله، بل يبدل حاله ويذيقه مرارة الأيام وعسر الحال بعد أن كان الخلق كلهم يؤم هذا الفتى؛ لسعة حاله وغناه.

ومثله قوله(44):

كَمْ أَدَّتِ الأَيَّامُ مِنْ حَدَثٍ كَفَتْ أَيَّامُهُ حَدَثَ الزَّمَانِ المُعْضِلِ

والمقصود بالحدث الأول الفتى والحدث الثاني أحداث الزمان وتقلباته على الفتى.

ويقول في مدح قوم مالك بن طوق التغلبي(45):

مُتَدَفِّقًا صَقَلُوا بِهِ أَحْسَابَهُمْ إِنَّ السَّمَاحَةَ صَيْقَلُ الأَحْسَابِ

فمن لطيف صنع أبي تمام أن وصفهم بالكرم زيادة على السماحة التي أراد بها اللطف والبشاشة عند هؤلاء القوم، فمن جميل طباعهم جمع الكرم ودماثة الخلق، فجاء المدح جامعًا للكرم والحكمة في آنٍ واحد.

ومن أمثلة المدح بالحكمة عند الطائي مدحه للتغلبي بوصفه لامًّا للشمل جامعًا موحِّدًا، ومن ذلك قوله(46):

والسَّهمُ بالرِّيشِ اللِّوَامِ وَلَنْ تَرَى بَيْتًا بِلا عَمَدٍ وَلا أَطْنَابِ

فهذه رويَّة ومعان لا يختلف في صحتها اثنان، فالشاعر يُشبِّه اللُحمة والتوافق بتوافق وتراتب ريش السهم الذي كان مُرتَّبا، ويؤكد بالشطر الثاني بمسلَّمة مفادها ألَّا بيتَ بلا عمد أو حبال. ومقصوده من ذلك أن الممدوح فيه من الحكمة ما يجعله يؤلف بين قلوب أبناء قبيلته، ويجمع كلمتهم تحت رايته؛ ليلتفوا حوله في السراء والضراء. ويكمن الإبداع هنا في كيفية إيصال المعنى والفكرة للممدوح من خلال وصفه بالسهم ووصف قومه بالريش في الشطر الأول ووصفه بالبيت وقومه بالعمد والحبال في الشطر الثاني.

(43) المرجع السابق، م 2، ص289.البحر الطويل .
(44) المرجع السابق، م3، ص 50.البحر الكامل .
(45) المرجع السابق، م 1، ص 79.
(46) المرجع السابق، م1، ص 88.البحر الكامل .

ومن مدحه للحسن بن سهل يقول(47):

يَطُولُ اسْتِشَارَاتِ التَّجَارِبِ رَأيُهُ إذَا مَا ذَوُو الرَّأيِ اسْتَشَارُوا التَّجَارُبَا

فهو يمدح رزانة فكره ورجاحة عقله، فأهل الرأي يستشيرونه عند اختلاط الأمور عليهم، والتجارب تأخذ من آرائه حين تحتاج. فالممدوح يمتاز بالحكمة والقدرة على التصرف في الأمور العضال.

وقريب من هذا المعنى قوله في مدح الحسن بن وهب(48):

أحرَزْتَ خَصْلَيْهِ إليْكَ وأقبَلَتْ آرَاءُ قَوْمٍ خَلْفَ رَأيَكَ تُجنَبُ

وَإذَا رَأيْتُكَ وَالْكَلامُ لآلئٌ تُومٌ فَبِكرٌ فِي النِّظامِ وثَيِّبُ

فرأي الممدوح هو السابق والراجح، وهو من آرائه على ثقة مطلقة، وآراء الآخرين تندحر عند إبدائه لرأيه بأية مسألة كانت، ثم إنه يرى في ممدوحه بأنه صاحب ابتكارات وحلول فعالة لم يسبقه أحد بطرحها، أما إن كانت آراؤه قد سبق إليها فإنها أيضًا تكون صوابًا وحكيمة.

ومدحه لعياش بن لهيعة بقوله(49):

رَأَيْتُ لِعَيَّاشٍ خَلائِقَ لَمْ تَكُنْ لِتَكْمُلَ إلّا فِي اللّبابِ المُهذَّبِ

إذ إنه وجد في ممدوحه أخلاقًا لا تجتمع إلا لصاحب لُبٍّ حكيم، يصفه بالمُهذَّب الذي لا تعتريه القبائح، العاقل الذي يتصرف بحكمة، وهذا مدح جميل فنيا؛ لأنه يجمع بين العقل والعاطفة، أو الحكمة وحسن الخلق.

أما الأخلاق عند الحسن بن وهب فهي مما يطمع بأن تهدى وتوهب. يقول(50):

وَانْفَحْ لَنَا مِنْ طِيبِ خِيمِكَ نَفْحَةً إنْ كَانَتِ الأخْلاقُ مِمَّا تُوهَبُ

وللممدوح نفسه في مرة أخرى نجده يجعل أخلاقه قمة عالية مقدسة، لا يرتقي إليها إلَّا صاحبها، بعيدة عن دنس المدنسين، صعبة المنال والنوال. فيقول(51):

أَبُو عَلِيٍّ أَخْلاقُهُ زَهْرٌ غِبَّ سَمَاءٍ وَرُوحُه قُدسُ

(47) المرجع السابق، م1، ص 144.البحر الطويل .
(48) المرجع السابق، م1، ص134.
(49) المرجع السابق،، ص 152.البحر الطويل.
(50) المرجع السابق،، م1، ص 137.البحر الكامل.
(51) المرجع السابق، م2، ص230.البحر المنسرح

فقد شبهه بالزهر بعد أن أمطرت السماء عليه، فالزهر بهذه الحالة يكون في أبهى صوره، وأكثر حالات نضارته، كذلك حال الممدوح. إضافة لما عليه أخلاقه من قدسية وسمو، ولعظيم الخلق وبلوغ منتهاه نجد الشاعر يمدح المأمون بقوله(52):

فَإِذَا بَنَيْتَ بِجُودِ يَوْمِكَ مَفْخَرًا عَصَفَتْ بِهِ أَرْوَاحُ جُودِكَ فِي غَدِ

وَبَلَغْتَ مَجْهُودَ الْخَلائِقِ آخِذًا فِيهَا بِشَأوِ خَلائِقٍ لَمْ تُجْهَدِ

فقد حصل الممدوح على الخلق العظيم ومكارمه دون جهد منه؛ وذلك لأصالة ذلك في نفسه، في حين يتعب الخلق ويجدون في جمع محاسن الخلق فإن الخلق جمع للمأمون دون كد ولا عناء.

وقوله يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة(53):

خُلُقٌ مُشْرِقٌ وَرَأيٌ حُسَامٌ ووِدَادٌ عَذْبٌ وَرِيحٌ جنُوبُ

فقد جمع في الممدوح الخلق المشرق المشرف والرأي السديد واللقاء الصافي المغني.

أما أخلاق الحسن بن سهل فالشاعر يراها من العظم ما لو قسمت على الخلق لكفتهم، وما وجدت العيب والخسة فيهم، فقال(54):

لَوْ اقتُسِمَتْ أَخْلاقَهُ الغُرُّ لَمْ تَجِد مَعِيبًا وَلا خَلقًا مِنَ النّاسِ عائِبَا

وقال يمدح داود الطائي(55):

أَصْبَحَ فِي النّاسِ مَحْمُودًا لسُؤْدُدِهِ لا زَالَ مُكْتَسِيًا سِربَال مَحْسُودِ

وهذا مما يجد السيد لنواله، ثم إن الحسد يلاحقه وهذا دليل على سيادته وارتقاء خلقه.

- **الزهد باب الحكمة وترك أوامر النفس**

أما الزهد والرغبة عن الدنيا فهو من الفضائل المحمودة التي تدل على أن صاحبها ارتقى بنفسه عن الشهوات ونأي بها عن الملذات؛ ليسمو بها إلى المعالي والسؤدد،

(52) المرجع السابق، ص 53.البحر الكامل.
(53) المرجع السابق، م 1، ص 294.البحر الخفيف.
(54) المرجع السابق، م 1، ص 143.البحر الطويل.
(55) المرجع السابق، م 2، ص 108.البحر البسيط.

قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ)(56)، وقال تعالى: (وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ)(57). وقال جل شأنه: (قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا)(58)؛ لذا فإن المسلم الحق عالم بغاية الله من خلقه على هذه البسيطة، وعالم بأن الدنيا دار فناء، وأن الآخرة هي دار البقاء.

ولم ينس الطائي مدح ممدوحيه بهذا الباب العظيم؛ لعلمه اليقين بمحبة الخَلقِ لهذا الخُلُقِ، على الرغم من القِلَّة القليلة التي تتمتع به، فقال يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة(59).

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إذَا عَنَّ سُؤْدُدٌ ... وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ

إذَا الْمَرْءُ لَمْ يَزْهَدْ وَقَدْ صُبِغَتْ لَهُ ... بِعُصْفُرِهَا الدُّنْيَا فَلَيْسَ بِزاهِدِ

مُحَمَّدُ يَا ابن الهَيْثَمِ ابن شَبَانَة ... أبي كُلِّ دَفّاعٍ عَنِ المَجدِ ذَائِد

فهذا الممدوح يَتَمَتَّع بِقدر عالٍ من الخُلُقِ ما يجعله يَصدُّ عن الدنيا ومَلَذَّتِها. وحتى وإن كانت بأبهى حُلَلِها وأجمل صُوَرِها. ثم يؤكِّد لنا الشاعر التزام الممدوح بهذا النُبل بأن اشترط على المُسْتَحِقِّ لِلَقَبِ الزاهد أن يزهد عن عظيم المَلَذَّات لا عن صغائر المُغْرِيات، لِيُعاود بعد ذلك تأكيد أن ممدوحه يسعى للمجد لا للشهوات والمتعة الفانية.

وقال في القناعة والرضا بالقسمة وعدم الغلو في اللهاث وراء الدنيا(60).

مَن زاحَفَ الأيَّامَ ثم عَبَا لهَا ... غَيرَ القنَاعَةِ لَمْ يَزَلْ مَفْلُولَا

فمن ابتغى غير القناعة والقسمة بقي في حياته تعبا ودائم الخسران، والأجمل من ذلك استخدام الشاعر للفظة (زاحف) فهي كلمة نُظِمَت في موقعها الصحيح فلا أجدر ولا أكثر قناعة من هذه الكلمة بمثل هذا الموقع، فالله تعالى يصف حياة الإنسان بالتعب والشقاء، وأنها في كبد، قال تعالى: (لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ)(61)، والزحف الذي اختاره الشاعر أقرب ما يدل على السعي المُضني الشاق؛ فصورة الساعي بالزحف تتطلب رؤية المشقة والتعب والبطءَ، ويدل ذلك على روعة ألفاظ الطائي وعميق فكره وبراعة اختراعه.

---

(56) سورة فاطر، الآية 5.
(57) سورة آل عمران، من الآية 185.+
(58) سورة النساء، من الآية 77.
(59) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م2، ص 73.البحر الطويل.
(60) المرجع السابق، م3، ص 67.البحر الكامل.
(61) سورة البلد، الآية رقم 4.

- **صلة الرحم وحفظ حق الجار ومساعدة المحتاج**

أمّا صِلة الرحم وحفظ الجار ورعاية حقه فهي من قيم العربي وأخلاقه الحميدة، وقد جاء عليها أبو تمام ولم يغفلها، فقال في مدح مالك بن طوق التغلبي(62):

لَمْ تَرْمِ ذَا رَحِمٍ بِبائِقَةٍ وَلا كَلّمْتَ قَوْمَكَ مِن وَرَاءِ حِجَابِ

فهذا المدح يقود إلى أن الممدوح على خلق عالٍ في الحفاظ على صلة رحمه، ومراعاة مقامهم وحفظ حقهم في نفسه وتصرفاته تجاههم، إضافة إلى دماثة الخلق والتواضع، فهو يلاقي أهله بصدر رحب، ولا يتكبر عليهم أو يكلمهم من وراء حجاب، وتظهر براعة الطائي في هذا الموضع في التضمين من ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ ضمَّن معنى بيته ولفظه من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾(63).

فهذه الآية الكريمة نزلت بحق رجلين من أهل الطائف رفعَا صوتيهما في مسجد رسول الله، وقيل إنها نزلت بحق أبي بكر وعمر، والجماعة الذين نادوا رسول الله من خلف الحجرات بصوت عالٍ.

كذلك الأمر عند مدحه لابن مالك بن طوق (عمر) فيصفه كما وصف والده من قبل ويزيد، فقال(64):

الْوُدُّ لِلْقُرْبَى وَلَكِنْ عُرْفَهُ لِلأَبعَدِ الأَوْطَانِ دُونَ الأقرَبِ

فالشاعر يرى أن الممدوح يودُّ أقاربه ويصل رحمه لكن دون أن يعطيهم؛ فهم ليسوا في حاجة. أما الوصل بالعطاء فيكون لمن هم أبعد عن الممدوح نسبًا، ويكون بهذا قصد نفسه، وأنه ينتظر من الممدوح العطايا والصلات.

وهذا البيت كان مثار جدل بين الآمدي وأنصار أبي تمام، يعلل الآمدي سبب ذمه البيت قائلا: "لأنه نقص الممدوح مرتبة من الفضل؛ إذ جعل وده لذوي قرابته، ومنعهم عرفه، وجعله في الأبعدين دونهم. ولا أعرف له في هذا عذرا يتوجه. وقد عارضني في هذا البيت غير واحد ممن ينتحل نصرة أبي تمام. فقال بعضهم: إن العرف هو ما يتبرع به الإنسان، فلذلك جعله في الأباعد، فأما الأقارب فإن برهم وصلتهم من الحقوق اللازمة"(65).

(62) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 1، ص 80.البحر الكامل .
(63) سورة الحجرات، الآيات 2-5.
(64) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 1، ص 103.البحر الكامل.
(65) الآمدي، الموازنة، ص175.

وفي رأي الباحثة أن الآمدي تحامل على أبي تمام في هذا البيت، فالممدوح كريم يعطي القريب والبعيد، يؤكد على ذلك: أنه يود أقاربه بالعطاء وغيره حبا وجوبا، أما العرف فهو عطاء للأباعد حبا وكرها، وهذا ما يفسر قوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"(66)، قال السعدي: "هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم. فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق؛ فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم .. ."وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ"، أي: بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد .ولما كان لابد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله."(67)، خلاصة القول: إن الود للخواص من ذوي القربى، والعرف عام للقريب والبعيد.

وعند مدحه للمعتصم صور لنا حفظ الجار وحقه بصورة جميلة ملزمة للمخاطبين فقال(68):

مَلِكٌ غَدَا جَارَ الْخِلافَةِ مِنكُمُ وَاللهُ قَدْ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ

فهو يذم الإفشين ومن عاونه (منكم)؛ إذ يذم غدرهم، ويذكرهم بأن الخلافة قد أصبحت للمعتصم وملازمة له ملازمة الجيرة، ولا بد من حفظ هذه الجيرة التي أوصى الله بها. ومن ذكاء أبي تمام أنه جمع ثلاث صفات عظيمة في المعتصم بهذا البيت، فوصفه بالملك ثم هو خليفة وأخيرًا هو جار، وتلك صفات لا يتجرأ أحد على مسِّها بسوء، فهو بهذا يُقذع بذمِّ الإفشين وجماعته ويُخجلهم بتصرفاتهم. ومن جهة أخرى يُرضي المعتصم ويُثني على مُلْكِه وحقِّهِ في السلطة والخلافة.

واستطاع أبو تمام أن يُضمِّنَ حديثًا للرسول الكريم □ في مدحه لمحمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي، فيقول(69):

رَهَطَ الرَّسولِ الذي تَقَطَّعَ أسـ ـبابُ البَرايا غدًا سِوى سَبَبِه

فقد وصف الممدوح بأنه من آل البيت، وضمَّن حديث رسول الله □ الذي يقول فيه: (كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي) (70)، وهو بهذا يُظهر جانبًا شخصيًّا خاصًّا به، ألا وهو التزامه أو اطلاعه أو

(66) سورة الأعراف، الآية: 199.
(67) عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان، مقدمه الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل والشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، ط7، 1440م، ص 344.
(68) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م2، ص198.البحر الكامل.
(69) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م1، ص 271.البحر المنسرح.
(70) محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، 1995 م، ج 5، ط 1، ص 35.

صِلته بالدين، وأيضًا يؤكد حُبَّه للرسول الكريم. أمّا بالنسبة للممدوح فيكفيه ما أضفاه عليه من جلال وقدسية أن جعله من رهط الرسول ومن سلالته.

ثم يتابع وصف الممدوح بالمثل الخلقية السامية، فيقول(71):

مُهَذَّبٌ قَدَّتِ النُبُوَّةُ والإســـــلامُ قَدَّ الشِّرَاكِ مِن نَسَبه

لَهُ جَلالٌ إذا تَسَربَلَهُ أكسَبَه البَأوَ غَيرَ مُكتَسِبِه

إذ إن الممدوح عظيم مهاب مهذب صاحب خلق وفضيلة في أعين الناس دون أن يسعى لذلك.

يقول في حسن استقبال الزائر والمحتاج عند عمر طوق(72):

وَمُرَحِّبٍ بالزَّائِرينَ وَبِشْرُهُ يُغْنِيكَ عَنْ أَهْلٍ لَدَيْهِ ومَرحَبِ

يَغدُو مُؤَمِّلُهُ إذَا مَا حَطَّ فِي أَكْنَافِهِ رَحْلُ الْمُكِلِّ المُلْغِبِ

فهو يرى ممدوحه محطًّا للمسافر، الذي تعب من وعثاء السفر والذي كلَّت راحلته، إذ يجد عنه كرمًا غامرًا وخيرًا عظيمًا.

- **الكرم والجود في مديح الطائي:**

يعد الكرم مثالًا شامخًا للخلق القويم بين القبائل، تجده محط عناية واحترام القادة والأمراء، ومحط نظر الشعراء والمحتاجين، ولا يخفي دور الشعراء الكبير في رصد هؤلاء وإعلاء صيتهم بين القبائل، وفي الأمصار القريبة والبعيدة، إلى أن أصبح كثير منهم مضرب المثل على مر الزمان بكرمهم وحسن وفادتهم كحاتم الطائي.

وللكرم في أشعار أبي تمام كم هائل وحضور زاخر في مدح ممدوحيه بهذا المثل الخلقي، فلا تكاد تخلو منه موقعة ولا نازلة، فالأحداث والزيارات والحضور والتواجد كل ذلك نال الحظ الوافر من إضفاء صفة الكرم والجود على الممدوح.

ففي كرم المعتصم يقول(73):

كَأَنَّ أَموَالَهُ وَالبَذْلُ يَمْحَقُهَا نَهْبٌ تَعَسَّفَهُ التَّبْذِيرُ أو نَفَلُ

(71) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م1، ص271.البحر المنسرح.
(72) المرجع السابق ، م1، ص 101.البحر الكامل.
(73) المرجع السابق، م3، ص 11.البحر البسيط.

فهذه صورة معتادة عند أهل الكرم، فأموالهم دائمًا في مهب الريح، لا يهتمون ببقائها في أيديهم. وأبدع الشاعر باستخدام ألفاظ تناسب السياق، وتقوي المعنى فبذل المعتصم لأمواله كان عن طريق المحق والنهب والتعسف والنفل، كلها ألفاظ قوية، وغريبة بعض الشيء؛ إذ اعتاد العرب استخدام هذه الألفاظ في مواضع أخرى، وهو ما سُمي بـــ: (غريب اللفظ عند أبي تمام).

ومن ذلك قوله يمدح مالك بن طوق التغلبي(74):

لا جُودَ فِي الأَقْوَامِ يُعْلَمُ مَا خَلَا جُودًا حَلِيفًا فِي بَنِي عَتَّابِ

فقد قصر الطائي الجود في بني عتاب، وهم قوم الممدوح، بل زاد على ذلك بأن جعل الجود حليفًا لهم.

وبالقصيدة نفسها يقول(75):

لِلْجُودِ بَابٌ فِي الأَنَامِ وَلَمْ تَزَلْ يُمْنَاكَ مِفْتَاحًا لِذَاكَ الْبَابِ

ومرة أخرى قصر الجود على مالك بن طوق بأن جعله حصرًا عليه؛ إذ جعل للكرم بابًا، ومفتاح هذا الباب كف الممدوح، وبهذا تتضح براعة الشاعر في نظم الألفاظ وصقل المعاني بالطريقة التي يريدها.

ومن قصيدة أخرى للممدوح نفسه نجده أبدع في إبراز ظاهرة الكرم، فقال(76):

مُفْتَرِسٌ مَالُهُ وَلَسْتَ تَرَى فَرِيسَةً عِرضَهُ لِمُفتَرِسِ

إذ شبه كرم الممدوح وعطائه بالافتراس، هذا الجود يفترس المال كأنه وحش ينقض على فريسته، فيمزقها، وهذا دلالة على مبالغة الممدوح في العطاء، كذلك فإنك تجده حاميًا لِعرضه من أي دنس، فلا أحد يجرؤ على المساس به أو الاقتراب من حياضه.

ومن مدحه لعمر بن طوق يقول(77):

يُعْطِي عَطَاءَ المُحْسِنِ الْخَضِلِ النَدَى عَفوًا ويَعْتَذِرُ اعْتِذَارَ المُذْنِبِ

فهو يجزل العطاء دون كلل أو مِنة، بل -لحسن خلقه – يرى نفسه مقصرًا في إكرام النازل به مهما قدم.

وفي القصيدة نفسها نجد براعة أبي تمام في طلب الكرم الممدوح قل نظيرها، فهو يطلب الصلة دون تذلل، بل يطلبها بطريقة تجعل الممدوح يصله وهو مسرور بعطائه له؛ إذ يقول(78):

(74) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، ص 78.البحر الكامل.
(75) المرجع السابق، م1، ص 80. البحر الكامل.
(76) المرجع السابق، م 2، ص241. البحر المنسرح.
(77) المرجع السابق، م1، ص 101.البحر الكامل.

بَحْرٌ يَطِمُّ عَلَى العُفَاةِ وَإِنْ تَهِجْ ... رِيحُ السُّؤَالِ بِمَوْجِهِ يَغْلَوْلِبِ

والشَّوْلُ مَا حُلِبَتْ تَدَفَّقَ رِسْلُهَا ... وَتَجِفُّ دِرَّتُهَا إِذَا لَمْ تُحْلَبِ

فهو هنا يصف الممدوح بالكرم، ويرسم لذلك صورة نادرة، فهو يراه كالبحر في العطاء وكالناقة الحلوب، ذاك البحر الذي يعطي دون حساب، وتلك الناقة التي تعطي إن حلبت، فهو يوصل رسالة للممدوح بأن يجزل عليه العطاء بعد أن أوضح فكرة أن لا بد للسائل (الطالب) من الطلب، وأن الأمر متعلق بالسائل لا بالمسؤول، فالمسؤول جاهز بوفرة لكن عند السؤال فقط، وهذا مما يدل على دهاء أبي تمام وحيله القوية في حث الممدوح على الوصل والعطاء الجزيل.

وفي مدح الحسن بن وهب يقول(79):

الحَسَنُ بنُ وَهْبِ ... كَالْغَيثِ فِي اِنْسِكَابِهِ

فِي الشَّرْخِ مِن حِجَاهُ ... والشَّرخِ مِن شَبَابِهِ

والْخِصْبِ مِن نَدَاهُ ... وَالخِصْبِ مِن جَنَابِهِ

ولعل من أهم دلائل صور الكرم عند العرب: وصفهم الممدوح بالغيث فضلًا عن استخدامه لكلمة (انسكاب) دلالة على كثرة العطاء وجزيل الوصل، وهذه لَمحة أُخرى يُتحِفنا بها الطائي؛ إذ استعمل الصورة القديمة في وصف الكريم بالغيث، لكنه أبدع في إخراجها الإخراج الجديد، فقد جعل هذا الغيث ينسكب دلالة على عِظَمه وكثرته.

ونجد تكرار المشهد نفسه والصورة نفسها عند مدحه للحسن بن سهل بقوله(80):

كَالْغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَافَاكَ رَيِّقُهُ ... وَإِنْ تَحَمَّلْتَ عَنْهُ كَانَ فِي الطَّلَبِ

و"ريَقُّه، أي: أوله، وهو (فيعل) من راق يروق. يقول: هو جواد كالغيث، وإن قصدت ناحيته وإفاك أول مائة، وإن رحلت عنه تبعك وجد في طلبك، أي يجود عليك حيث كنت"(81).

ومرة أخرى وبالممدوح نفسه يستخدم كلمة الغيث كناية عن كرمه، فيقول(82):

(78) المرجع السابق، م 1، ص 105.البحر الكامل.
(79) المرجع السابق، م1، ص 108. البحر مجزوء الرجز.
(80) المرجع السابق، م1، ص 113.البحر البسيط.
(81) المرجع السابق، ص 113.
(82) المرجع السابق، م 1، ص 143.البحر الطويل .

هُوَ الْغَيْثُ لَوْ أَفْرَطْتُ فِي الْوَصْفِ عَامِدًا لِأَكْذِبَ فِي مَدْحَيهِ مَا كَنْتُ كَاذِبَا

والصورة قريبة من هذا عند أبي الحسن بن مر، فاستخدم لفظة الندى مرة في كرمه، وأخرى في كرم قومه، فقال(83):

كَمْ حَالَ فَيْضُ نَدَاهُ يَوْمَ مُعضِلَةٍ وَبَأْسُهُ بَيْنَ مَنْ يَرْجُوهُ وَالْمِحَنِ

فاستخدام الشاعر كم الخبرية دلالة واضحة على أن كرم هذا الممدوح لا حد له، والكرم عنده يفيض كما يفيض الماء بلا حساب، وأن كرمه يكون كالمسحة الشافية لكل مكروب، ثم يضيف بقوله(84):

قَوْمٌ إذَا هَطَلَتْ جُودًا أَكُفّهُمُ عَلِمْتَ أَنَّ النّدَى مُذْ كَانَ فِي اليَمَنِ

فمرة أخرى نجد لفظًا خاصًّا بالماء، وهو الهطول، وجميعها تقود إلى الكرم وعظيم السخاء.

ويعود الندى دالًّا على عظيم السخاء مرة أخرى، فقال يمدح دينار بن عبد الله(85):

نَشِيمُ بُرُوقًا مِنْ نَدَاكَ كَأَنّهَا وَقَدْ لاحَ أولاهَا عُرُوقٌ نَوابِضُ

فكرم هذا الممدوح قوي واضح كالبرق، فإن كان أول عطائه كالبرق فمن المؤكد أن ما سيأتي بعد ذلك عظيم، ثم إن تدفق كرم الممدوح واضح جلي كما هي عروق اليد ظاهرة.

"ويتابع الشاعر على نفس النسق، مستخدمًا اسم (جعفر) والذي هو النهر الكثير الماء"(86)، للدلالة على فيض الكرم وكثرته.

فقال يمدح محمد بن عبد الملك الزيات(87):

أبَا جَعْفَرٍ أَجْرَيْتَ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ لنَا جَعْفَرًا مِنْ فَيْضِ كَفّيْكَ سَلْسَلَا

فقد أبدع الشاعر مُجانسًا بين جعفرٍ وجعفرًا، فأيقظ إحساس الممدوح عُنوة بذلك، فالخيال صنع الصورة في هذا البيت، فالممدوح يُكنّى بأبي جعفر، وجعفر من أسماء النهر، وبهذا ما ترك للممدوح من خلاص في قبول هذا المدح بعد أن أيقظ فيه الزهوَ بطريقة لائقة جاذبة.

(83) المرجع السابق، م 3، ص 339.البحر البسيط.
(84) المرجع السابق، م3، ص 339.البحر البسيط.
(85) المرجع السابق، م 2ص 298.البحر الطويل .
(86)انظر:المرجع السابق، م1، ص 98.
(87) المرجع السابق، م 3، ص 98.البحر الطويل

وفي كرم أحمد بن عبد الكريم يقول(88):

لا تَعْدِمَنّكَ طَيِّيءٌ فَلَقَلّمَا عَدِمَتْ عَشيرَتُكَ الْجَوَادَ السَّيِّدَا

فهو يمدح ممدوحه ويمدح قبيلته التي هي قبيلة الشاعر أيضًا، ويذكرنا بحاتم الطائي، وهو بهذا يكون قد مدح ثلاثة ممدوحين كرامًا، وهنا تبرز خصيلة اعتدنا على مُلاحظتها، إذ قلَّما نجد له قصيدة لا يمدح بها نفسه، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أو عن طريق فخره بشعره، وهذه المرَّة عن طريق مدحه وفخره بقبيلتهِ (طيء).

وعند مدحه لعياش بن لهيعة تراه يقول(89):

لَهُ كَرَمٌ لَوْ كَانَ فِي الْمَاءِ لَمْ يَغِضْ وَفِي الْبَرْقِ مَا شَامَ امْرُؤٌ بَرْقَ خُلّبِ

أَخُو أَزَمَاتٍ بَذْلُهُ بَذْلُ مُحْسِنٍ إِلَيْنَا وَلكِن عُذْرُهُ عُذْرُ مُذْنِبِ

فالماء مصدر للحياة لا يفارق مدح الطائي لممدوحيه؛ لشدة ما فيه من دلالة على السخاء والجود. ويضيف الشاعر للممدوح صفة أخرى قائلا(90):

إِذَا أَمَّهُ العَافُونَ أَلفَوا حِيَاضَهُ مِلاءً وَأَلْفَوْا رَوْضَهُ غَيْرَ مُجْدِبِ

إِذَا قَالَ أَهْلًا مَرْحَبًا نَبَعَتْ لَهُمْ مِيَاهُ النَّدَى مِنْ تَحْتِ أَهْلٍ ومَرْحَبِ

استخدم الشاعر كلمة (أمَّهُ)؛ وليس أيُّ كلمة أخرى تفيد الغرض منها، فدلالة هذه الكلمة أقوى وبها مبالغة؛ إذ تجعل السامع يغوص في بحر من الطاقة المتدفقة؛ فبها يكون الممدوح غمامًا، وبها يكون زُوَّارهُ كُثُر، وبها يشعر السامع بشهرة الممدوح وقيمته بين الخَلْقِ. أمّا كلمة حِياضه فلها من الدلالة العمق ذاتهُ؛ فلم يقل بيته أو قصره أو سكنه أو مضاربه مثلًا، فالحياض مسرح دائم الحركة كثير الأحداث، لا يفتر عن التبدل والتغيُّر، كذلك الأمر في استخدامه كلمة روضه، فالروض دائم الخُضرة والعطاء والبهجة وسرور للناظرين.

ولا تنتهي صور أبي تمام في باب الكرم، فهو يولد ما لم يكن موجودًا ويلبس القديم حلة جديدة، فيقول في أبي سعيد الثغري(91):

أَنْضَرَتْ أَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى صَارَ سَاقًا عُودِي وَكَانَ قَضِيبَا

(88) المرجع السابق، م 1، ص 107.البحر الكامل.
(89) المرجع السابق، م 2، ص 152.البحر الطويل
(90) المرجع السابق، م 2، ص 152.البحر الطويل.
(91) المرجع السابق، م2، ص 171.البحر الخفيف.

مُمْطِرًا لِي بِالْجَاهِ وَالْمَالِ لا أَلْ قَاكَ إلا مُسْتَوْهِبًا أَوْ وَهُوبَا

فَإِذَا مَا أَرَدْتُ كُنْتَ رِشَاءً وَإِذَا مَا أَرَدْتُ كُنْتَ قَلِيبَا

بَاسِطًا بِالنَّدَى سَحَائِبَ كَفٍّ بِنَدَاهَا أَمْسَى حَبِيبٌ حَبِيبَا

فمن النضارة أي الخضرة دليل على كثرة العطاء، إذ أصبح أبو تمام مشتد العود صلبًا بعد أن كان ضعيفًا، فيقول: تعطيني وتدفع غيرك ليعطيني، حتى أبدع في زج اسمه مطابقا للحال في قوله: "أمسى حبيبٌ حبيبًا"، فمن زيادة عطائك أصبحت أعطي الناس مما تعطيني لأصبح عندهم محبوبًا.

وقد اجتمع الكرم مع الشجاعة عند محمد بن يوسف الطائي بقول الطائي حبيب فيه(92):

بِأَسْمَحَ مِنْ غَرِّ الغَمَامِ سَمَاحَةً وَأَشْجَعَ مِنْ صَرْفِ الزَّمَانِ وأَنْجدِ

فالممدوح كالمزن الراوي للزرع والشجر بكرمه، وبه من الشجاعة ما يفوق صروف الزمان وأهواله.

وفيه يقول أيضًا(93):

فَتًى أَحْيَتْ يَدَاهُ بَعْدَ يَأْسٍ لَنَا الْمَيْتَيْنِ مِنْ كَرَمٍ وَجُودِ

فالشاعر يرى أن الكرم والجود قد ماتا، إلا أن الممدوح قد أحياهما، دلالة على سعة عطائه، وزيادة بذله وسخائه، وقد أراد أن يظهر للممدوح فكرة مفادها أن غيره من الممدوحين أو المعنيين بالمدح لم يكونوا على قدر كافٍ من الكرم والبذل، حتى يثير في نفس الممدوح روح المنافسة، وحُبَّ البروز على غيره، وهذه المهارة لا تتأتّى لأي شاعرٍ.

أما الندى عند جعفر الخياط فقد قال فيه الطائي(94):

بِسَيْبٍ كَأَنَّ السَيْبَ مِن ثَرِّ نُوْبِهِ وَأَنْدِيَةٍ مِنْهَا نَدَى النَوْءِ يَعْصَرُ

فالشاعر يرى أن السيل الغزير الجريان قد استمد عزمه وقوته من سيب (عطاء) الممدوح، والسيب هو السيل، فسيل عطاء الممدوح أجرى سيل الماء في الوادي.

وكان الندى عند سليمان بن وهب إغاثة للمكروب، فقال أبو تمام(95):

(92) المرجع السابق، م 2، ص 24.البحر الطويل.
(93) المرجع السابق، م1، ص 42.البحر الوافر.
(94) المرجع السابق، ص215.البحر الطويل.
(95) المرجع السابق، م 1، ص 122.البحر الكامل.

سَدِكُ الكَفَّ بالنَدَى عَائِرُ السَّمْـــــ ـــــعِ إلَى حَيْثُ صَرْخَةُ المَكْرُوبِ

وفي كرم المأمون يقول الطائي(96):

هَذَا أَمِينَ اللهِ آخرُ مَصْدَرِ شَجِيَ الظَمَّاءُ بِهِ وأَوَّلُ مَوْرِدِ

فهذا أول لقاء لأبي تمام بالمأمون، فنعته بأمين الله، وأبو تمام لا يحتاج بعد هذا اللقاء إلى لقاء أحد آخر؛ لأن جوده يرويه ولن يعطش بعد هذا اللقاء، فأسلوب مثل هذا يقود المأمون وغيره إلى الإغداق على الشاعر.

ومدح أبا العباس نصر بن منصور بن بسام، فقال(97):

غَنِيتُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ وَحُوِّلَتْ عِجَافُ رِكَابِي عَنْ سَعِيدٍ إلَى سَعْدِ

الشاعر يُظهر في هذا البيت ثقافته الواسعة، واطلاعه على أحوال السابقين، "فقد ضمن في بيته هذا قصة سعد وسعيد، وهما أخوان، أحدهما عاش وأنجب وحلت البركة بماله وذريته وهو سعد فأصبح دليلًا على السعد والخير ونقيضه القلة والقحط الذي ارتبط بأخيه سعيد الذي بقي فردا إلى أن قتل في سفر له وانقطع خبره وخيره، فأراد بهذا أن حظه وافر بلقاء الممدوح الذي بدل حاله من سعيد إلى سعد"(98).

وفي القصيدة نفسها يمدحه، فيقول(99):

فَتَىً لا يُبَالِي حِينَ تَجْتَمِعُ الْعُلَا لَهُ أنْ يَكُونَ الْمَالُ فِي السُّحْقِ الْبَعْدِ

فَتَى جُودُهُ طَبْعٌ فَلَيْسَ بِحَافِلٍ أَفِي الجَوْرِ كَانَ الْجُودُ مِنهُ أَمْ القَصْدِ

تَجلي بِهِ رُشْدِي وَأَثْرَتْ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ ثَمْدِي وَأَوْرَى بِهِ زَنْدِي

فالممدوح لا يبحث عن المال ما دام السؤدد والمعالي من صفاته، والكرم طبع فيه، يكرم دون حساب، فاضت قريحة الشاعر مدحاً من عطاياه، وأثرت يده واغتنت، فلا كرم فوق هذا الكرم، ولا حاجة بعد هذا الإثراء، فقال(100):

فَإنْ يَكُ أَرْبَى عَفْوَ شُكْرِي عَلَى نَدى أَنَاس فَقَدْ أَرْبَى نَدَاهُ عَلَى جُهْدِي

(96) المرجع السابق، م 2، ص 54.البحر الكامل.
(97) المرجع السابق، م2، ص 65. البحر الطويل.
(98) انظر:أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد م 2، ص 221.
(99) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 2، ص 66.البحر الطويل.
(100) المرجع السابق، م 2، ص 67.البحر الطويل.

وَمَا زَالَ مَنْشُورًا عَلَيَّ نَوَالُه وَعِنْدِيَ حَتَّى قَدْ بَقِيتُ بِلا عِنْدِي

وعند مدحه لأحمد بن عبد الكريم الطائي يجمع بين المدح والطلب في آن واحد ببراعة قل نظيرها، فقال(101):

هَيْهَاتَ لا يَنْأي الفَخَارُ وَإنْ نَأي عَنْ طَالِبٍ كَانَتْ مَطِيَّتَهُ النَّدَى

فيحتمل هذا البيت عدة وجوه: "قد يكون أشهرها أن الفخر لا يغادر الممدوح فهو يأتيه حين يطلبه، ثم إن الكرم ملازم لقبيلة طي والشاعر منها، كما هو الممدوح بطبيعة الحال، وقد اختلف في لفظة مطيته، فمنهم من رأي بأن الشاعر شبه نفسه بالمطية، ومنهم من رأي بأنها عطية الممدوح للشاعر، ومنهم من أرجعها للمطية التي عقرها حاتم الطائي، حيث –كما أشرنا سابقًا- فإن الشاعر والممدوح من قبيلة طي، وكذلك حاتم قبلهما"(102).

ويتابع أبو تمام إبراز خصلة الكرم عند الممدوح، فيقول(103):

فَالْمَالُ أَنَّى مِلْتَ لَيْسَ بِسَالِمٍ مِن بَطْشِ جُودِكَ مُصْلِحًا أَو مُفْسِدَا

ولأَنتَ أَكْرَمُ مِن نَوَالِكَ مَحْتِدَا وَنَدَاكَ أَكْرَمُ مِنْ عَدُوِّكَ مَحْتِدَا

فاستخدام البطش دلالة عميقة وقوية تخدم غرضا عظيما، وهو: البذل والعطاء والكرم، فأبو تمام يرى أن الممدوح أكرم من المال نفسه، وليس جمع المال من طباع الممدوح، بل إن نفس الممدوح وكرامته أسمى من المال وحفظه. إضافة إلى أنه قَرَنَ كرم الممدوح بكرم آبائه وأجداده من قبله، على عكس أعدائه الذين لا هم ولا أسلافهم أهل كرم وعطاء. ثم يقول أبو تمام(104):

أَضْحَى عَدُوًّا لِلصَّدِيقِ إذَا غَدَا فِي الْحَمْدِ يَعدُلُه صَدِيقًا لِلعِدَا

فمن الواضح أن هذا الممدوح فيه من الكرم والعطاء ما يجعله يخاصم صديقه، ويعده عدوا له إذا عاتبه أو لامه على بذله وعطائه. فالممدوح يسعى لاكتساب الصفات السامية، فلا حد يحده، ولا صديق يمنعه.

(101) المرجع السابق، م 2، ص 106. البحر الكامل.
(102) المرجع السابق، م 2، ص 106.البحر الكامل.
(103) المرجع السابق، ص 107.البحر الكامل.
(104) المرجع السابق، م 2، ص 104.البحر الكامل.

- **الشجاعة في مديح أبي تمام**

إن طبيعة حياة البدوي حتَّمت عليه أن يكون شجاعًا حيث البيئة الصحراوية القاسية؛ للدفاع عن نفسه وعشيرته، واستمرَّ هذا الحال بعد مجيء الإسلام، ورغم تمدُّن الحياة العربية في المدن والأمصار ورَغَد الحياة فيها إلا أن شجاعة الفارس بقيت ركيزة أساسية، فدَعة العيش ورغده لم تُخْفِ حب العربي للشجاعة، وحاجته للفروسية، وقد ظهرت دواعٍ جديدة للشجاعة إضافة إلى الدواعي السابقة للإسلام.

لذلك لم يهنأ ممدوح، سواء في الشعر أو النثر، إلا بعد أن يمدحه بالشجاعة؛ وبالتالي أَوْلى الشعراء هذا الخُلُق وما يدور في فَلَكه عناية فائقة، وخصوصًا أن الشجاعة بعد الإسلام ارتبطت كثيرًا بنوع فروسي جديد، وهو مقاومة الأعداء من أجل إعلاء كلمة الله في مشارق الأرض ومغاربها، لهذا كان الظَّفَر للممدوح عند نعته بالشجاعة يقود إلى مَدْحه بالحفاظ والذَّوْد عن حياض الإسلام وحِماه، مما يُكسبه حُبًّا في قلوب العامة والخاصة.

والشاعر حبيب الطائي كان من أبرز شعراء عصره إبرازًا لهذا الفن المديحي. وهذا الخُلُق النبيل عند ممدوحيه بل قام، في أحيان كثيرة، بِرَسْم صور جديدة وخَلْق أجواء حماسية فروسية رائعة، فتميَّز، وأجاد، وأغرب. ومن ذلك وَصْفه لشجاعة عيّاش بن لهيعة الحضرمي، يقول(105):

مصادٌ تلاقتْ لُوَّذًا بريـودهِ ... قبائلَ حَيَّيْ حضرموتَ لِيَعْرُبِ

بِأَرْوَعَ مَضَّاءٍ عَلَى كُلِّ أَرْوَعٍ ... وَأَغْلَبَ مِقْدَامٍ عَلَى كُلِّ أَغْلَبِ

كَلَوْذِهِمُ فِيمَا مَضَى مِن جُدُودِهِ ... بِذِي العُرْفِ والإِحْمَادِ قِيلٍ وَمَرْحَبِ

هُمَامٌ كَنَصْلِ السَّيْفِ كَيْفَ هَزَزْتَهُ ... وَجدْتَ المَنايَا مِنْهُ فِي كُلِّ مَضْرِبِ

فالممدوح فارس مِقدام على فرس أو ناقة أصيلة، وتلك هي صفاته التي يحمده الناس عليها ويمدحونه فيها، كجدوده الذين سبقوه في الفروسية، ثم يَصِفُه بالفارس الذي هو كحدِّ السيف لا هوادة في أفعاله وضَرْبه، فكيفما ضرب أدْمَى وقتل أعداءه.

وفي شجاعة المعتصم يقول(106):

أَسْدُ العَرِينِ إذا مَا الرَّوْعُ صَبَّحَها ... أَو صَبَّحْتَهُ وَلَكِنْ غَابُهَا الأَسَلُ

تَنَاوَلُ الفَوْتَ أَيْدِي المَوتِ قَادِرَةً ... إِذَا تَنَاوَلَ سَيفًا مِنهمُ بَطَلُ

(105) المرجع السابق، م 1، ص 153-154.البحر الطويل.

(106) المرجع السابق، م3، ص 18.البحر البسيط.

فهو يمدح شجاعة المعتصم وعُصبته مؤكدا أنهم أسود لا يخشون الموت؛ إذ إن الموت لا يُرَدّ إذا هَبَّ منهم بطل واحد متقلِّد سيفه.

وبالمعتصم أيضًا يقول(107):

جَلَّيْتَ وَالْمَوتُ مُبْدٍ حُرَّ صَفْحَتِهِ وَقَدْ تَفَرْعَنَ فِي أَوْصَالِهِ الأَجَلُ

هذا هو المعتصم الشجاع الذي لا يخشى الموت، بل يقف بجانبه غير آبِهٍ له، على الرغم من أن الموت لا يستثني أَجَلَ أحدٍ.

وزاد على ذلك عند المأمون، فشجاعته تخطَّت الموت، ناهيك عن الخوف منه . يقول(108):

فَرَدَدْتَ حَدَّ المَوْتِ وَهْو مُرَكَّبٌ فِي حَدِّهِ فَارْتَدَّ وَهْوَ زُؤَامُ

فهو قد رَدَّ الموت حتى لو كان الموت سريعًا. فالشجاعة صفة أساسية عند الممدوح. فلا خوف من الموت.

وقد مدح شجاعةَ دينار بن عبد الله في الحروب والمعارك، فقال(109):

أَخَا الْحَرْبِ كَمْ أَلْقَحْتَها وَهْيَ حَائِلٌ وَأَخَّرْتَهَا عَنْ وَقْتِهَا وَهْيَ مَاخِضُ

إِذَا عِرْضُ رِعْدِيدٍ تَدَنّسَ فِي الْوَغَى فَسَيْفُكَ فِي الهَيْجَا لِعِرْضِكَ رَاحِضُ

فَأَنْتَ الّذِي تَسْتَيْقِظُ الحَرْبُ باسْمِهِ إِذَا جَاضَ عَنْ حَدِّ الأَسِنّةِ جَائِضُ

إِذَا قَبَضَ النّقْعُ الْعُيُونَ سَمَا لَهُ هُمَامٌ عَلَى جَمْرِ الحَفِيظَةِ قَابِضُ

صوَّر أبو تمام هذا الممدوحَ كأنه سائِس الحرب وقائدها، وكأنها كائن حي يَسُوسُه صاحبه بعد أن روَّضه، فالحرب لعبة بين يدَيه طائعة له، يتحكم بذروتها وركودها، ترى سيفه يَشُقّ غبار النقع دون رهبة أو وَجَلٍ، الجمال الفني يكمن في الوصف؛ فقد استخدم الطائي ألفاظًا لمثل هذا الموضع ما اعتاد أكثر الشعراء تضمينها في شعرهم، فاللقاح والحائل والماخض حالات للولادة والحمل وما يتعلَّق به، إلَّا أن الشاعر أقحمها هذا الموضعَ فإبداع في وصف الحرب وسائسها.

(107) المرجع السابق، م3، ص 16.البحر البسيط.
(108) المرجع السابق، ص157. البحر الكامل.
(109) المرجع السابق، م2، ص 298 – 299.البحر الطويل.

وفي مدح أبي سعيد الثغري يقول(110):

طَاعِنًا مَنْحَرَ الشَّمَالِ مُتِيحًا لِبلادِ العَدُّوِ مَوْتًا جَنُوبَا

سَبرَاتٍ إذَا الحُروبُ أَبِيخَتْ هَاجَ صِنّبْرُها فَكَانَتْ حُرُوبَا

فهذا الممدوح لديه من الشجاعة ما يجعله دائم الطعن في العدو، فهم في الشمال ويأتيهم الموت على يد هذا الفارس من الجنوب، فقتال الممدوح لأعدائه لا يعرف استكانةً، ولا هو يجعلهم في راحة، فغدواته دائمة حتى لو اشتد البرد عليه فليس ذلك يُثْنِيه عن مواصلة قتال الأعداء.

وفي الممدوح نفسه وقومه يقول الطائي(111):

صَدَعْتَ جِرْيَتَهُمْ فِي عُصْبَةٍ قَلَل قَدْ صَرَّحَ المَاءُ عَنْهَا وانْجلي الزَّبَدُ

فالممدوح وقومه شجعان، شتَّتوا شمل أعداءهم وأذاقوهم طعم الخسارة، كيف لا والممدوح وعصبته القليلة الشجاعة كسيل الماء في اندفاعهم نحو الأعداء سيل ماء لا يتوقف، ويجرف كل ما بطريقه؛ إذ لا جبان ولا متخلِّف عن الزحف في عصبة الممدوح. ويضيف الطائي قائلا(112):

إذَا رَأَوْا لِلْمَنَايَا عَارِضًا لَبِسُوا مِنَ الْيَقِينِ دُرُوعًا مَا لَهَا زَرَدُ

نَأَوْا عَنِ المُصْرَخِ الأدْنَى فَلَيْسَ لَهُمْ إلّا السُّيُوفَ عَلَى أعْدَائِهِمْ مَدَدُ

فهؤلاء القوم لا يخافون الموت، وشجاعتهم تجعلهم يُلاحقون الموت بصدور عارية من ستر الوقاية، إلا أن هذه الصدور تفيض عقيدة ويقينًا وثقة.

وبقصيدة أخرى يؤكِّد شجاعة هذا الممدوح، فيقول(113):

فَتًى هَزَّ القَنَا فَحَوَى سَنَاءً بِهَا لا بالأَحَاظِي والجُدُودِ

إذَا سَفَكَ الْحَيَاءَ الرَّوْعُ يَوْمًا وَقَى دَمَ وَجْهِهِ بِدَمِ الوَرِيدِ

فالممدوح يتصف بالشجاعةً في الحرب لا بالوراثة والسلم، ثم هو ثابت بوجه الخصوم، لا يَفِرّ فيُراق دمُ وجهه، كالذي يَفِرّ من ساحة الوغى، وتداخل الهم والضعف في نفسه بسبب فراره. ويتابع الشاعر في إظهار شجاعة هذا الممدوح، فيقول(114):

(110) المرجع السابق، م 1، ص 165.البحر الخفيف

(111) المرجع السابق، م 2، ص 13.البحر البسيط.

(112) المرجع السابق، م 2، ص14.البحر البسيط.

(113) المرجع السابق، م 2، ص 36.البحر الوافر.

وَبَيَّتَ الْبَيَاتَ بِعَقْدِ جَأْشٍ أَشَدُّ قُوًى مِن الحَجَرِ الصَّلُودِ

رَأوا لَيْثَ الغَرِيْفَةِ وَهْوَ مُلْقٍ ذِرَاعَيْهِ جَمِيعًا بِالْوَصِيدِ

من شدة بأسه ورباطة جأشه جهَّز نفسه للانقضاض على عدوه ليلًا، ولم ينتظر الصباح، حتى برز لهم يصول ويجول، وتَطالُ يده كلَّ ما يريد. ولا تخفي براعة الطائي هنا باستخدام النص القرآني وتلاؤم طرحِه معه، قال تعالى في سورة الكهف: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)(115).

فانظر إلى التناص القرآني في شعر أبي تمام، كيف استطاع ببراعته أن يُضَمِّن مدحَهُ ألفاظ القرآن الكريم.

ويقول في شجاعة أحمد بن عبد الكريم(116):

كَمْ جِئْتَ فِي الهَيْجَا بِيَوْمٍ أَبْيَضٍ وَالْحَرْبُ قَدْ جَاءَتْ بِيَوْمٍ أَسْوَدَا

أَقْدَمْتَ لَمْ تُرِكَ الحَمِيَّةَ مَصْدَرًا عَنْهَا وَلَمْ يَرَ فِيكَ قِرْنُكَ مَوْرِدَا

لَمْ تُغْمِدِ السَّيْفَ الَّذِي قَلَّدْتَهُ حَتَّى تَمَنَّى نَصْلَهُ أَنْ يُغْمَدَا

فأحمد بن عبد الكريم مِقدامٌ شجاع يُبْلِي البلاء العظيم في الحرب، ولم يصدر عن الحرب، وأورد عدوَّه الهلاك، ولم يترك السيف أبدًا مقاتلًا لأعدائه. وللصنعة دور عظيم في تجديد المعنى من خلال اللفظ المزخرف، وهذه هي الصنعة التي ترعرعت منذ القِدَم، إلَّا أن نماءها كان على يد أبي تمام، فالطباق بين أبيض وأسود يُحْدِث أثرًا واضحًا في نفس المتلقي من خلال صراحة التناقُض، ومصدرًا ومَوْرِدًا تجذب انتباه السامع للمعنى الوارد وتَشُدُّهُ، ناهيك عن جمال التصوير في أماني السيف في أن يُغمَد ويرتاح، فيصل للذهن المعنى بوضوح.

وبشجاعة أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي يقول(117):

أَمْتَعْتَ سَيْفَكَ مِن يَدَيْكَ مَغُوثَةً لا تُمْتِعُ الأَرْوَاحَ بِالأَجْسَادِ

قَدْ كَادَ مَضْرِبُهُ يُجَالِدُ جَفْنَهُ لَوْ لَمْ تَسَكِّنْهُ بِيومِ جِلادِ

وَالسَّيْفُ مُغْفٍ غَيْرَ أَنَّ غِرَارَهُ يَقِظٌ إِذَا هَادٍ نَحَاهُ لِهَادِ

(114) المرجع السابق، م2، ص 38-39.البحر الوافر.

(115) سورة الكهف، آية 18.

(116) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م 2، ص 105.البحر الكامل.

(117) المرجع السابق، م 2، ص 130. البحر الكامل.

فالممدوح والسيف متلاحمان متفاهمان مُتَّفقان، كل منهما يُلبِّي رغبة الآخر. ومن جهة أخرى غير المدح نجد أن وَصْف السيف هنا كان بغاية الروعة والدِقَّة. فالمضرب يُجالد الجفن لولا السكون والراحة، وحتى إن كان بوقت راحة إلَّا أنه يَقِظ متأهِّب.

أما شجاعة أبي سعيد فقد جعلت العدو يلاقيه متقهقرًا خائفًا، يقول أبو تمام(118):

لَمَّا لَقُوكَ تَواكَلُوكَ وأَعْذَروا هَرَبًا فَلَمْ يَنْفَعْهُمُ الإِعْذَارُ

فأعداء الممدوح يلاقونه خائفين، فالواحد منهم يختبئ خلف الآخر، ولكن هيهات لهم الفرار، فلا اصطفافهم يُنجيهم، ولا خوفهم يضمن لهم الحياة.

- **الجمع بين عدة مكارم في ممدوح واحد**

وفي الجمع بيَّن عدة مكارم نجد أبا تمام قد جمع بين الشجاعة والكرم في مدحه لمحمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي بقوله(119):

إنْ جَدَّ رَدَّ الخُطُوبَ تَدْمَى وَإنْ يَلْعَبْ فَجَدُّ العَطَاءِ فِي لَعِبِهْ

فممدوحه في وقت الجد والحرب تراه باسلًا، يرد الخطوب والمصائب عن قومه، كأن الخطوب مخلوق يسيل دمه بعد إثخانه بالجراح. ومن جهة أخرى فإن هذا الممدوح نجده وقت الهَزْل يُجْزِل العطاء على من حوله، وقد صوَّر ذلك بصورة فنية توحي أن عطاءه لَعِبٌ، ولعبه عطاء، وهذا مفاده أن الإنفاق والعطاء يسيرٌ وسهلٌ من هذا الممدوح. وجمال الصورة الفنية يكمن في رسم صورة الممدوح في حالة الحرب وحالة السلم.

ومما يؤكد قوة القريحة وعظم الشاعرية عند أبي تمام قدرتُه الفائقة على جَمْع عدة فضائل في ممدوح واحد، وما هذا إلَّا قدرة وبراعة ألزم الشاعر نفسه بها؛ ليقينه بقدرته على ذلك، ففي مدح الحسن بن وهب نجده قد جمع في مدحه شخصيات تراثية ذات قيمة أدبية عالية، حيث شبَّه الممدوح بهؤلاء كل على حِدَة، يقول(120):

فَكَأنَّ قَسًّا فِي عُكَاظٍ يَخْطُبُ وَكَأنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيّةَ تَنْدُبُ

وَكُثَيْرَ عَزَّةَ يَوْمَ بَيْنٍ يَنْسُبُ وابنَ المُقَفَّعِ فِي اليتِيمَةِ يُسْهِبُ

(118) المرجع السابق، م2، ص.170. البحر الكامل.
(119) المرجع السابق، م1، ص 274.البحر المنسرح.
(120) المرجع السابق، ص 134. البحر الكامل.

فالممدوح بهذا يكون خطيبًا مُفَوَّهًا كقُسِّ بن ساعدة، وهو حكيم حافِظٌ للعهد للذين فارَقوا الحياة لا ينساهم، كحال ليلى الأخيلية في مراثيها بتوبة بني الحمير. وهو شاعر مُرْهَف الإحساس ككُثَيِّر عزة، ثم هو أديب عالم كابن المقفع، ثم إنّ مِثْلَ هذا المدح دليل على ثقافة أبي تمام، وإحاطته بأخبار السابقين.

ولا يكتفي بذلك، بل يجعله الوقورَ الحليمَ الحكيمَ، فيقول(121):

تَكْسُو الوَقَارَ وَتَسْتَخِفُّ مُوَقَّرًا طَوْرًا وَتُبْكِي سَامِعِينَ وَتُطْرِبُ

يرى الشاعر أن ممدوحه يجمع بين الوقار والمزاح، والوعظ والطرب، فلا يدانيه وقور في وقاره، ولا خطيب في وعظه، ولا مازح في طربه، فهو الوقور المهاب، والواعظ البكّاء، المازح المطرب، وهكذا يجمع بين قوة الجد وطرب المزح، وهذه لطائف متفرِّقةً من أخلاقه تحمل الشاعر على الغوص في معان جديدة وصور مبتكرة.

ومرة أخرى نجد جمع المكارم صفةً ملازمة لشعر أبي تمام، فها هو يمدح أحمد بن دُوَاد بالأخلاق الرفيعة السالمة من العيوب، إضافة إلى مدحه بالكرم والجود، الذي يَصِفُه أيضًا بالجود الذي سَلِمَ بسبب عدم سلامة المال، فيقول(122):

إِلَى سَالِمِ الأَخْلاقِ مِنْ كُلِّ عَائِبٍ وَلَيْسَ لَهُ مَالٌ عَلَى الْجُودِ سَالِمُ

فالأخلاق سالمة من العيوب، وماله لا يسلم من توزيعه وهِبَتِه للرعايا والمستحقين.

وعلى النهج نفسه والمنوال ينسج وصفًا مشابِهًا برموز مختلفة حين مدح أحمد بن المعتصم، فقال(123):

إِقْدَام عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاس

فقد شبَّه شجاعته بشجاعة عمرو بن مَعْدِيكَرِب، وبحكمة وحلم الأحنف وبكرم وضيافة حاتم الطائي، وبذكاء إياس قاضي البصرة المعروف بالذكاء وإصابة كَبِد الحقيقة حتى لو كانت بالظن.

ليعاود جَمْع الخصال الحميدة في عياش بن لهيعة الحضرمي، فيقول(124):

يَهُولُكَ أَنْ تَلْقَاهُ صَدْرًا لِمَحْفِلٍ وَنَحْرًا لأَعْدَاءٍ وَقَلْبًا لِمَوْكِبِ

(121) المرجع السابق، م 1، ص 135. البحر الكامل.
(122) المرجع السابق، م3، ص 180.البحر الطويل.
(123) المرجع السابق، م2، ص 249. البحر الكامل.
(124) المرجع السابق، م1، ص 152.البحر الطويل.

مَصَادٌ تَلاقَتْ لَوْذًا بِرُيُودِه قَبَائِلُ حَيَّيْ حَضْرَمَوْتَ لِيَعْرُبِ

وهنا يتعجب الطائي من شخصية الممدوح، فهو مجمع للأهل والمناسبات وهو شوكة حادة في حُلوق الأعداء، وهو رأسُ القبائل والزعماء، ثم جعله قمةَ جبلٍ شامخة، وجعل أعماله وأفعاله مَحَطَّ أنظار واهتمام القوم، إضافةً إلى ما له من فضل في حماية ورعاية قبائل حضرموت المنحدرة من يَعْرُب.

أما اللين ونقيضه القسوة فقد اختُصَّت بهما شخصية المعتصم عند الطائي. فقال(125):

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَاتَيْتَ ذَاكَ بِذَا فَأَنْتَ لا شَكَّ فِيكَ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ

فهذا تحليل جميل وصورة تشبيهية دالَّة، فالممدوح قوي شجاع يقهر أعدائه، وبالمقابل ليِّن الجانب هَيِّن مع أهله وأحِبَّته وأصدقائه، ويؤكِّد هذا النمط لدى الممدوح بأن نفسه كالجبل قوة وبأسًا، وبالوقت نفسه هو سَهْلٌ كالسهل، لا وعورة ولا صعوبة فيه نفسه. وكالعادة تظهر عبقرية الطائي في تزيينه المعنى ببريق الصنعة وجمال اللون. فالشراسة عكس اللين،

والسهل نقيض الجبل. وقد تَعَمَّد أبو تمام أن يستخدم الطباق هنا لإظهار طبائع الممدوح التي تتلوَّن وتتغيَّر حسب الموقف، فاللين مع الأحباب، والعنف مع الأعداء، وتلك رسالة مُبَطَّنةٌ للممدوح بأن لا ينسى مُحِبِّيه ومُريدِيه، والشاعر منهم.

وفي مدح أبي بشر عبد الحميد بن غالب(126):

كَرَمٌ يَزِيدُ عَلَى الْكِرامِ وتَحْتَهُ أَدَبٌ يَفُكُّ الْقَلْبَ مِنْ أَغْلالِهِ

فقد جمع الشاعر في ممدوحه الكرم الذي فاق كرم غيره، ولم يكتف بذلك، بل زاد بأن جعله على خُلُق عظيم وأدب جَمٍّ، فأدبه وأخلاقه تسحر الألباب والعقول.

ويمتزج الكرم والحياء لدى الشاعر في مدح يحيى بن ثابت في قوله(127):

يَحْيَى بن ثَابِتٍ الّذِي سَنَّ النّدى وَحَوَى المَكَارِمَ مِنْ حَيًا وحَياءِ

ويجمع الكرم والمعروف في مدح السليل بن المسيّب أبي قدامة الكلابي فيقول(128):

(125) المرجع السابق، م3، ص 11.البحر البسيط.
(126) المرجع السابق، م3، ص55. البحر الكامل.
(127) المرجع السابق، م1، ص 39. البحر الكامل.
(128) المرجع السابق، م3، ص 283.البحر البسيط.

يا بنَ المُسَيَّبِ قَوْلًا غَيْرَ مَا كَذِبٍ لَوْلاكَ لَمْ يُدْرَ مَا الْمَعْرُوفُ وَالْكَرَمُ

فقد أجاد الشاعر باستخدام لفظ (المعروف)؛ فهو جامع شامل لكافة الخصال الحميدة والمُثُل الخُلُقِيّة.

ونجده قد جمع ذلك بصورة ظريفة عندما مدح جعفر الخياط، فقال(129):

فَتًى مِنْ يَدَيهِ الْبَأسُ يَضْحَكُ والنّدَى وفي سَرْجِهِ بَدْرٌ وَلَيْثٌ غَضَنْفَرُ

يصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة والكرم في يده، وعلى سرج فرسه نجده بدرا جميلاً وأسدا شجاعة، صورة بديعية قائمة على الطباق من وجهة، وهي صورة خيالية بيانية تقوم على المجاز المرسل، وعلاقته الجزئية والمحلية، وهذه صورة فنية تجمع بين البديع والبيان معا، وهذا من الجمال الفني الذي أحدثته مدرسة أبي تمام التجديدية ومن تبعه.

ويُعِيد ذِكْر هذه المُثُل الخُلُقِيّة والخصال الحميدة مرة أخرى ببيت لاحِقٍ في القصيدة نفسها؛ ليؤكِّد ذلك على الممدوح والسامعين، ويُثْبِت أحقيَّته في العطاء والبذل، فيقول(130):

حَوَتْ رَاحَتَاهُ الْبَاسَ وَالْجُودَ وَالنّدَى وَنَالَ الْحِجَا فَالْجَهْلُ حَيْرانُ أزْوَرُ

وبهذا وبغيره الكثير من المعاني المديحيَّة ذات البُعْد الخُلُقي توجد بكثرة في مديح أبي تمام، وقد استطاع أبو تمام إلباسها حُلَّةً زاهية الألوان من صور فنية فريدة وتشبيهات جديدة، أفْضَتْ إلى رسم زخارف مديحية خُلُقية جميلة أساسُ جمالها حُظْوَتُها وحضورها لدى المجتمع العربي أولًا، والإسلامي ثانيًا؛ إذ بَثَّ الشاعر روحًا جديدة في القديم المألوف، وأبدع في خَلْق الجديد المرغوب.

الخاتمة والنتائج

لقد كان العرب قديمًا يعرفون الأخلاق الحميدة والذميمة، وتَكْمُن أهمية هذا الورقة في كونها قد تناولت المعاني في قصيدة المديح عند أبي تمام أحد أمراء الشعر العباسي الذي أثَّر بحق في خريطة الشعر العربي ومن أهم النتائج التي توصَّلَتْ إليها الدراسة:

(1) كان المديح الغالب على ديوان أبي تمام؛ فمثَّل حوالي ثلثي قصائد ديوانه تقريبا. وقد تعددت العوامل والأسباب الداعية لذلك، فمنها: التقرُّب إلى الحكام والخلفاء، وطلب المجد والشهرة، وأيضًا طلب المال والتكسُّب بالشعر خوفًا من الفقر، والجديد في تكسبه أنه لم يعد للشعراء في عصره عطاء، فقد استحوذ على كل العطاء لقوة شعره وجدة أسلوبه، وهذا يؤكد سبب حقد شعراء عصره عليه، ونيلهم منه.

(129) المرجع السابق، م2، ص 215.البحر الطويل.

(130) الخطيب التبريزي، ديوان أبي تمام، م2، ص 216.البحر الطويل.

(2) إن مَن يتابع شعر أبي تمام ويتفحَّصه يجد ارتباطًا وثيقًا بين فن المديح والمثل الأخلاقي في شعر أبي تمام، فكثيرا ما ضمن مديحه لممدوحيه مكارم الأخلاق والمثل الأخلاقية: كالشجاعة والكرم والمروءة وغيرها.

(3) إن المعاني المديحيَّة عند أبي تمام قد تنوَّعت وكثرت، وقد تخلَّلتها قيمة أخلاقية رفيعة وسامية، رسمها صاحبها بكثير من الخيال والبديع والإغراب في اللفظ والمعنى والصورة الصورة الفنية.

(4) إن أبا تمام سعى جاهدًا إلى ترسيخ الأخلاق الحميدة الحسنة من خلال مدائحه المتعددة، سواء في المعتصم أم في غيره، سواء أكان هذا الترسيخ في رَصْد الواقع، أم في التأمُّل في الحياة، أم في التعبير عن طبائع البشر، ورَصْد سلوكياتهم، أم في غيره.

(6) غلبت ثقافة أبي تمام الموسوعية على أوصاف المثل الأخلاقية في القصائد المديحيَّة؛ فجمعت بين: القرآن، والسنة، والتاريخ، والثقافة العامة، والفلسفة. فأبي تمام كان حريصا على تضمين أشعاره العديد من الحكم والأمثال وأي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة؛ للاحتجاج على صحة مديحه بوجه عام، ولترسيخ جل الأخلاق القويمة في نفوس المتلقين، ولتأكيد نسبة هذه الصفات والمثل الأخلاقية للممدوحين. ويؤكد ذلك قصيدته في مدح المعتصم (فتح عمورية).

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

1/ القيرواني، الحسن (1401ه)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط الخامسة، دار الجيل.

2/ طبانة، بدوي (1390ه)، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ط.2، مكتبة الأنجلو المصرية.

3/ بدوي، أحمد (1977م)، أسس النقد الأدبي عند العرب، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة.

4/ شاهين، عطية (1987م)، شرح ديوان أبي تمام، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

5/ التطاوي، عبد الله (1999م)، النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي، ط1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

6/ الصولي، أخبار أبي تمام، ص 72.

7/ فروخ، عمر (1968م)، تاريخ الأدب العربي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

8/ ضيف، شوقي (1426ه)، تاريخ الأدب العربي، ط2، دار المعارف، القاهرة.

9/ جعفورة، محمد (2014)، الإحصائية نقلا عن كتاب أبو تمام وتجربة البحث عن الذات، ، الدار التونسية للكتاب، تونس.

10/ الأصفهاني، علي (1995م)، الأغاني، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

11/ مروّة، محمد (1990م)، *أبو تمام حياته وشعره* ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

12/ جعفورة، محمد (2014)، أبو تمام وتجربة البحث عن الذات، ، الدار التونسية للكتاب، تونس.

13/فروخ، عمر (1964م)، أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله، ط1، دار لبنان، بيروت.

14/ المصري، عيسى (2016م)، الوعيُ الشِّعريُّ عند أبي تمام - قراءة نسقيَّة، عدد 12، مجلة جامعة النجاح للأبحاث العلوم الإنسانية، فلسطين.

15/ البديعي، يوسف (1994م)، الصبح المُنْبي عن حيثية المتنبي، ط 3، دارة المعارف، القاهرة.

16/ المرجع السابق، ص 249.

17/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

18/ضيف، شوقي (1966)، كتاب تاريخ الأدب العربي، ط16، دار المعارف، القاهرة.

19/ الآمدي، الحسن (1994)، لموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ط4، دار المعارف.

20/ ضيف، شوقي (1966)، كتاب تاريخ الأدب العربي، ط16، دار المعارف، القاهرة.

21/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

22/ الأندلسي، أحمد (1973م)، العقد الفريد، ط3، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

23/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

24/ المرجع السابق، م 1، ص 87. البحر الطويل.

25/ ضيف، شوقي (1966)، كتاب تاريخ الأدب العربي، ط16، دار المعارف، القاهرة.

26/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

27/ ضيف، شوقي (1966)، كتاب تاريخ الأدب العربي، ط16، دار المعارف، القاهرة.

28/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

29/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

30/ سورة آل عمران، الآية 140.

31/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

32/ سورة فاطر، الآية 5.

33/ سورة آل عمران، من الآية 185.

34/ سورة النساء، من الآية 77.

35/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

36/ سورة البلد، الآية رقم 4.

37/ سورة الحجرات، الآيات 2-5.

38/ الآمدي، الموازنة، ص175.

39/ سورة الأعراف، الآية: 199.

40/ السعدي، عبد الرحمن (1440م)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان، ط7، دار ابن الجوزي، الدمام.

41/ التبريزي، يحيى (1982-1987)، ديوان أبي التمام، ط(1،2،3،4)، دار المعارف، القاهرة.

42/ الألباني، محمد (1995م)، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ط1، مكتبة المعارف، الرياض.

43/ النيسابوري، أحمد، مجمع الأمثال، ط، دار المعرفة، بيروت.

44/ سورة الكهف، آية 18.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v3.23.3